غسان كنفاني



عالم ليس لنا



سلسلة أعمال غسان كنفاني ٤

غسان كنفاني

عالم ليس لنا

سلسلة أعمال غسان كنفاني ٤

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

* **عالم ليس لنا، قصص قصيرة لغسان كنفاني.**

* الطبعة الرابعة ١٩٨٧ (الطبعة الثالثة ١٩٨٣، الطبعة الثانية ١٩٨٠، الطبعة الأولى ١٩٦٥).

* الناشر: **مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.**

- ص.ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران)، بيروت - لبنان.
هاتف ٨١٠٠٥٥/٦، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا - لبنان.

— **IAR (RAWFID) Ltd.**

P.O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel. (357)2 - 452670, Tlx. 5223 Rawafid - Cy.

* التنفيذ الفني: دار المثلث ش. م. م، بيروت - لبنان.

غسّان كنفاني

* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلما للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محررا ادبيا لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيسا لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام ١٩٦٩ حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢.

* يمثل كنفاني نموذجا خاصا للكاتب السياسي والروائي والقاص والناقد، فكان مبدعا في كتاباته كما كان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام ١٩٦٦ جائزة **«اصدقاء الكتاب في لبنان»** لافضل رواية عن روايته **«ما تبقى لكم»**، كما نال جائزة **منظمة**

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام ١٩٧٤، ونال جائزة «**اللوتس**» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام ١٩٧٥.

مؤلفاته:

* موت سرير رقم ١٢ (قصص) ١٩٦١، * ارض البرتقال الحزين (قصص) ١٩٦٢، * رجال في الشمس (رواية) ١٩٦٣، * الباب (مسرحية) ١٩٦٤، * عالم ليس لنا (قصص) ١٩٦٥، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) ١٩٦٦، * ما تبقى لكم (رواية) ١٩٦٦، * القبعة والنبي (مسرحية) ١٩٦٧، * في الادب الصهيوني (دراسة) ١٩٦٧، * عن الرجال والبنادق (قصص) ١٩٦٨، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) ١٩٦٨، * ام سعد (رواية) ١٩٦٩، * عائد الى حيفا (رواية) ١٩٦٩، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام ١٩٦٦، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برقوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ ـ ٧٢، * جسر الى الأبد (مسرحية)، ١٩٦٥ * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) ١٩٧٠ * ثورة ٣٦ ـ ٣٩ في فلسطين (دراسة)، ١٩٧٢.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: *الشيء الآخر، او «من قتل ليلى الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٦ * اللوتس الاحمر الميت (رواية)، ١٩٦١ * ثم اشرقت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٥ * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس ١٩٦٤.

تمهيد

كتبت جميع قصص مجموعة «عالم ليس لنا» بين عامي **١٩٥٩** و**١٩٦٣**، ما عدا القصة الاخيرة «العروس» التي كتبت عام **١٩٦٥**، وقد نشر الكتاب للمرة الاولى في بيروت عام **١٩٦٥**.

لذلك سوف نجد خطا متينا يربط هذه المجموعة القصصية الى مجموعتي كنفاني السابقتين، «**موت سرير رقم ١٢**» و«**ارض البرتقال الحزين**»، حيث يأتلف صوتان اساسيان ليشكلا النسيج القصصي في المجموعة: الغربة عن الوطن، والغربة عن الكرامة. وفي الغربتين تطرح اسئلة حول الموت والحياة، ويتلمس المؤلف الواقع الانساني بأوجهه المتعددة وبتفاصيله المختلفة.

وكما كانت قصة «**موت سرير رقم ١٢**»، مؤشرا على محاولة كنفاني طرح اسئلة حول الموت وحول الظروف التفصيلية التي يعيشها الناس في الخليج، فان قصة «العروس»، تأتي لتطرح السؤال حول النضال الوطني الفلسطيني، وحول الرمز الذي سيتجسد في البندقية الفلسطينية. وليس صدفة ان تكتب القصتان بصيغة الرسالة، وليس صدفة ان يكون المؤلف هو الذي يتكلم في صورة البطلين، وليس صدفة اخيرا ان يكون البطلان مهمشين في الواقع: الاول يموت والثاني يصاب بالجنون.

قصص كنفاني القصيرة، بنبضها الحاد تريد ان تكون مرايا. انها مرايا يتقاطع فيها الذاتي بالموضوعي. كأن مرض المؤلف المزمن (اصيب كنفاني بداء السكري في شبابه المبكر) يأتي ليشكل خلفية المأساة التي يعيشها الوطن. لذلك تأتي القصص كمرايا، كصور للقلق والبحث

والخوف والموت. كلوحات تتداعى فيها الصورة الانسانية امام مشكلاتها، لا تطلب الحلول، لكنها تحاول ان تكون جزءا من مسيرة البحث عن الحل.

في التعريف القصير بكنفاني والمنشور في الطبعة الاولى من روايته «ما تبقى لكم»، كُتب ما يلي: «يعتبر «ما تبقى لكم» و«رجال في الشمس»، احسن ما كتب، ويعتز بصورة خاصة بقصة اسمها «العروس» نشرت في «عالم ليس لنا» وبقصة اخرى اسمها «زمن الاشتباك»..

كأن هذا العالم الذي ليس لنا، يجد الآن مفتاحه الضائع. فهذا الرجل الذي هو «مثل انسان ضيع شيئا، كان يسير محنياً بعض الشيء، بكفين مفتوحين متحفزتين، وعينين تنقبان وجوه الناس كأنهما محراثين عتيقين، لقد بدا لاول وهلة كأنه مجنون»، هذا الرجل هو صورة الفلسطيني الذي بدا وكأنه وجد عروسه في عام ١٩٦٥، ولم تكن العروس سوى هذا البحث المتواصل عن البندقية.

من قصة «جدران من الحديد» الى قصة «العروس»، مسيرة طويلة من محاولة البحث عن معنى، ولن يجد كنفاني المعنى الا انطلاقا من تلك المواجهة الغامضة في الصحراء مع عدوه في «ما تبقى لكم» ومنها، ستكون الكتابة اشارة الى الطريق، وستمتزج الطريق باشاراتها لان الكتابة تصل الى ان تكون فعلا.

ترجمت بعض قصص المجموعة الى اللغات الانكليزية والسويدية والنرويجية والدانماركية، كما ستنشر كاملة باللغة البولندية.

الناشر

الى فايز ، الى لميس ، الى كل الصغار
الذين نطمح بعالم لهم .

غ . ك .

HAMDAN.B
22/11/2009

المحتويات

لم يكن ليدور بخلد أي منا ان تلك الرزمة المربعة التي تلقاها حسان الصغير، من عم بعيد صباح يوم عيد ميلاده كانت تحتوي على قفص صغير في داخله عصفور حقيقي . . وحتى قبل أن يمزق حسان ورق الرزمة المثقب كنا نسمع ، ونحن متحلقون حوله، خفقات اجنحة تصطفق بتردد وزقزقات مكبوتة . إلا أننا لم نكن لنصدق بأن العصفور سيكون حقيقياً . . فماذا يمكن ان يفعل طفلٌ صغير بعصفور حقيقي؟

وفي لحظات ، تمزقت الورقة الملونة ورمى حسان بنفسه فوق القصف وضمه باحكام بين ذراعيه وصدره ثم هتف بصوت مثار :

ـ إنه حسّون . . !

ولم يكن قد تيسر لنا ، بعد ، ان نرى القفص والحسون بوضوح ، ذلك ان حسان كان مستثاراً وكان خداه قد توردا واخذت عيناه تلتمعان فيما كان يدور في ارجاء الغرفة دون ان يعرف ماذا يتعين عليه ان يفعل . . ولكنه، بعد لحظات ، سمح لنا بأن نلقي نظرة على الطائر الحبيس فيما كان يحتفظ بحلقة القفص في كف محكمة الاغلاق . .

كان القفص الخشبي الصغير دون طلاء وكانت قاعدته قد فرشت

بقطعة زجاج صقيلة وامتدت قصبة تصل بين الجدارين الاكثر ابتعاداً، وفي ركنين متجاورين ثبت وعاء الحب ووعاء الماء وكان سقف القفص قد جعل كالهرم وبدت اسياخ الحديد جديدة ومتقنة النصب. . وفي قمة القفص تعلق الحسّون المذعور بساقيه الرفيعتين فيما كان يرجف نافضاً رأسه بعنف، محدقاً الينا بعينين صغيرتين غارقتين في السواد الداكن المحيط بهما متوقدتين بالتماع حاد. . وكانت مقدمة رأسه تصطبغ بلون قرمزي ملتهب فتعطي وجهه الدقيق سمة من سمات العنف العاجز الحزين، كان وجهاً مسحوقاً، فيه الشيء الكثير من البطولة. . وطوال تلك اللحظات القصيرة لم يكفّ الحسّون عن التواثب بين جدران القفص وقمته، وفي كل مرة كان يحط بنفس العنف والضراوة، مدخلاً منقاره الأصفر الحاد بين الأسياخ مفتشاً بجنون عن نافذة تتسع لخروجه. . وكان يبدو، بسبب البقع الحمراء والسوداء التي نقشت رأسه، غاضباً كأعنف ما يكون الغضب، حزيناً حتى ليكاد يبكي. . وانه، بجسمه الصغير المتحفز وقبضتيه المشدودتين وعينيه البراقتين الغاضبتين، يعقد العزم على شيء رهيب. .

- لماذا لا يكف عن الطيران؟

- إنه خائف. . .

- ممن؟

- منك. .

واخذ حسان يحدق مهموماً الى الحسون محاولاً ان يكشف بنفسه سبب خوف الطائر المذعور منه، ولحظت ان وجهه قد تمسّح بشيء من

الندم المحير الذي ينتاب طفلاً لا يعرف كيف يجبر الأشياء على التعاطف معه، وفي نفس تلك اللحظة قال اخي الأكبر من وراء كتفي:

ـ كلا، انه ليس خائفاً منك، الحسون لا يخاف..

ـ لماذا، اذن، لا يكف عن الطيران.؟

ـ إنه يتعرّف الى بيته.. ألست ترى؟ انظر اليه كيف يشم الاسياخ باعتناء.. يريد ان يعرف أين يعيش...

ونظرنا، معاً، الى الحسّون المتنقل، بلا هوادة، بين الجدران المسيخة وبدا لنا، حقاً، انه يتعرف الى الاشياء.. ولكن حسان لم يكن قد ارتوى، بعد، من الاجوبة:

ـ ولكنه كان في القفص قبل أن يأتي الى هنا... لماذا لم يتعرف اليه قبل الآن؟.

ـ يبدو ان عمك قد اشتراه او اصطاده منذ أيام قليلة، فهو جديد على القفص.. إن ذلك يتضح من سرعة حركاته..

وعدنا نتطلع الى الحسون الصغير وهو يرتد من جدار حديد الى جدار حديد آخر.. فيما تابع اخي الاكبر بنفس النغمة الهادئة:

ـ يحتاج الحسون الى شهرين او ثلاثة شهور كي يعتاد الحياة في بيته الجديد. وطوال ذلك الوقت يدأب على دراسته والتعرف اليه محاولاً، في الوقت ذاته، ان يجد ثغرة للهرب..

وعقد حسان كفيه الصغيرتين وراء ظهره وأنشأ يحدق من جديد الى الطائر الرمادي المخضب باحمرار دموي:

ـ وسوف يظل كذلك طوال ثلاثة شهور؟.

ـ اجل..

ـ ولن يغني ابداً في هذه الشهور الثلاثة؟.

ـ لا، سوف يزقزق، ولكنه لن يغني..

ـ وبعد ثلاثة شهور؟

ـ ربما..

ـ وفي الليل.. هل سينام مثلنا؟

ـ سيقف، ولكن عينيه سوف تبقيان مفتوحتين لتراقبا كل شيء..

وكان اخي يعرف بأن اسئلة حسان لن تنتهي، ولذلك فقد غادر الغرفة دون ان يكمل الاستماع. وكنت اعرف، أنا بدوري، ان حسان لن يتركني اتمتع بالنوم في تلك الليلة اذ انه سيواصل الاطمئنان على عصفوره كلما تحرك العصفور او كلما تحرك في نومه. وطوال الأيام الخمسة التالية ملأ الحسون حياة حسان باتصال؛ وكان قد استدعى عدداً من رفاقه لمشاهدة الطائر الذي يتوقف لحظة عن الطيران من اجل ان يشم اسياخ القفص ويتعرف الى منافذه واركانه. وفي كل مرة كان حسان يكرر لأصدقائه ما سمعه من أخيه. وكما يفعل كل طفل، فقد اعطاه من خياله شخصية وسلوكاً.. إلا انه بقي غير مقتنع تماماً بأن الطائر المذعور انما يتعرف الى بيته الجديد.. واكثر من مرة انتهز الفرصة ليعبر عن تلك الشكوك لي، ذلك انه لم يكن يجرؤ على نقل تلك الشكوك والهواجس لأخيه الاكبر.. وفي مرة سألني:

ـ طيّب، لو فتحت باب القفص بعد ثلاثة اشهر وتركت الحسون يطير فهل يعود الى القفص؟.

ولكنني لم اكن لأستطيع ان اجيب، فانا لا اعلم شيئاً عن حيوات الطيور وعاداتها ووعدت حسان ان اسأل اخاه الاكبر وأنقل الجواب اليه، وحين قلت ذلك لأخي الاكبر انتهرني:

ـ لا تكن غبياً. . إنه يتعرف الى القفص فقط ليطيق العيش فيه ولكنه لن يهتم بذلك كثيراً اذا أتيحت له حياة غير مسيّخة. .

ولم أقل ذلك لحسّان، فمن العبث ان نمضي بالقصة الى ابعد مما ترتسم في رأسه الصغير، فليفهم الأمر كما يشاء فذلك ادعى لارتياحه وارتياحنا. وكان اخي الاكبر يرى نفس الرأي وإن كان ما يزال يعتقد انه من السخف بالاساس، ان يهدى الطفل الصغير عصفوراً حقيقياً. . إن ذلك حري بتبهيت الجوانب الاخرى من حياة الطفل. . .

ـ انظر! لقد ترك كل ألعابه وكل حيوانات المطاط والصوف والقماش. . مليون عصفور من القماش والبلاستيك اضحت الآن أقل من ان تعوض ذلك الحسون اللعين. .ماذا سماه؟

ـ حسّون. .

ـ ماذا؟!

ـ حسّون!. لم يستطع ان يفهم كيف يمكن ان يسمي الحسّون غير حسون. .

وفي اليوم التالي قال لي حسّان أنه يريد نقوداً ليشتري قفصاً اكبر للحسّون. وكنت ـ من ناحيتي ـ اشعر بأن القفص الحالي اصغر من ان يتسع لطيرانه الغضوب الدائب، إلا ان القفص الجديد لم يخفف من حدة الطيران ذاك، على الرغم من انه اعطى الحسّون مدى ابعد في هز الجناحين الصغيرين النضرين. وكان حسان سعيداً بذلك التغيير، وكانت سعادته اكبر حين قلت له بأن عليه نقل العصفور بنفسه من القفص القديم الى الجديد، وشرحت له بأن عليه ان يحتوي الطائر الصغير بين كفيه دون ان يضغط كثيراً خوف ان يقتله ودون ان يرخي الراحتين كثيراً خوف ان يهرب..

ـ وإذا عضني؟

ـ معنى ذلك انك ضغطت عليه كثيراً.. ارخ راحتيك..

ـ وإذا هرب؟.

ـ تكون قد أرخيت راحتيك كثيراً..

ونظر إليّ دون ان يفهم، ولكنه كان على استعداد لينقل الطائر بأي شكل.. بل انه فعل ذلك بأفضل مما تصورت. ولم يشك حين اطبق الحسّون بمنقاره فوق جلد راحته.. وطوال الأيام التالية تحدث عن ذلك كثيراً، وصار يعتقد أن سعادة الحسّون قد ازدادت في القفص الجديد الواسع.. الا ان أخي الأكبر الذي استمع بصبر الى ذلك كله، ونحن على طاولة الغداء كان له رأي آخر قاله دون أن يرفع رأسه عن الطعام.

ـ لقد ارتكبت خطأ في شراء القفص الجديد..

ـ لماذا؟

ـ خسرت شهراً! على الحسّون الآن ان يبدأ من جديد بالتعرف الى بيته الجديد، وسوف يستغرق ذلك وقتاً، خصوصاً وان القفص الجديد كبير جداً . .

ومن طرف عينيّ شاهدت حسان ينظر حواليه بأسى، ثم حاول ان يستأنف الأكل الا انه عاد فوضع الملعقة الى جانب الصحن واخذ ينظر إليّ . . ويبدو ان اخي الأكبر لاحظ ذلك فحاول أن يعيد الأمر الى نصابه دون ان يغيّر في لهجته .

ـ من يدري، فقد يروقه البيت الجديد فيتعرف اليه بأسرع مما نتصور. إن حسونك خبير بالبيوت . .

وقبل ان يتم ما كان يريد قوله تلاقت ابصارنا، وكان حسان ينظر إليّ دون ان يفهم، طامعاً، في ان تغيثه تعابير وجهي، وفي اللحظة التالية بلع أخي الكبير لقمته، ومضى بفكرته الى مداها:

ـ إن حسونك خبير بالبيوت . ! لقد عاش شهرين في قفص من الخيزران عند عمّك، ثم نقله الى القفص الخشبي الذي اشتراه خصيصاً ليرسله لك . . وها أنت ذا تشتري له قفصاً جديداً بعد شهر . .

وقبل ان يكمل زحزح حسان كرسيه واستدار عائداً الى غرفته دون ان ينبس بكلمة. ولكنه، قبل ان يجتازني، اوقفته وأمسكت به من ذراعيه فطأطأ رأسه ملصقاً ذقنه بصدره ورغم ذلك فقد استطعت ان أرى رموشه مبتلة بالدموع التى حاول طوال الغداء ان يبقيها في رأسه .

وقبل ان ينفجر قربت فمي من اذنه وسألته هامساً:

ـ ما بك؟

ولكنه لم يكن ليستطيع ان يتكلم، بعد،فخليت ذراعيه وتركته يعدو الى غرفته، وتبعته بعد لحظة فرأيته جاثياً الى جانب الحسّون المنتفض من جدار الى جدار. وحين التفت اليّ بدا لي انه قد حضر ما يريد قوله، فرماه بوجهي بصوت راجف حاد:

ـ منذ ثلاثة شهور لم يكف عن الطيران.. وأمامه ثلاثة شهور أخرى.

وخيل اليّ بأن الجناحين الغضين لن يستطيعا حمل الطير الصغير شهوراً ثلاثة اخرى. وكنت على وشك ان اقترح على حسان ان يفتح باب القفص ويخلي الطائر، إلا انني عدت فسكت منتظراً منه ان يصل الى ذلك دون مساعدتي.. ولكن شيئاً غريباً حصل في اللحظة التالية.. وقف الحسون فجأة ممسكاً بقبضتيه الدقيقتين القصبة الرفيعة محدقاً الينا بعينين حادتي الغضب لاهثاً لهاثاً قصيراً متتابعاً دافعاً صدره الأبيض،كالزبد، الى الامام. وطوال اللحظات التالية لم يتحرك وواصل التحديق الينا. وقد كنت اتوقع بالضبط كل الذي سيحدث: وقف حسان جذلاً وقد احمر وجهه ثم انشأ ينظر إلي بعينيه الواسعتين فابتسمت فيها امتلأ وجهه بضحكة نادرة.. وكالسهم انطلق الى غرفة الطعام وسمعت صراخه يختلط بخفقات خطواته الصغيرة ويرتد صداه على جدران الممر:

ـ «لقد وقف.. كف حسّون عن الطيران»..

ومن جديد سمعت صوت خطواته تتابع عائدة، وشهدته يندفع عبر الباب ويركع الى جانب القفص صافقاً كفيه فوق فخذيه مخضوضاً بالفرح. وفي اللحظة التالية وصل أخي الكبير فوقف وراءه هنيهة دون اي اهتمام، ثم انحنى فجأة متكئاً بكفيه على ركبتيه وحدق الى الحسّون الواقف بهدوء فوق القصبة.. فيما مضى حسان يكرر بلا توقف:

ـ الا ترى؟ لقد كف حسّون عن الطيران...

وهزّ اخي الكبير رأسه ببطء.. وواصل التحديق الى الطير الصغير عاقداً حاجبيه بامعان، ثم انفكت اسنانه عن جملة واحدة:

ـ إنه يحتضر.

بيروت ـ ١٩٦٣

الصقــر

كان عالمنا مرتباً بعناية فائقة: كل حسب راتبه. وهذا هو بالذات ما جعل علاقتنا بحارسي البناء الذي كنا نشغله، نحن مهندسي شركة الانشاءات الحديثة، علاقة القاء سلام، ليس الا..

- مساك الله بالخير يا جدعان..

ويأتي الجواب عن العلية الخشبية بايجاز:

- مساك الله بالخير يا عبد الله....

وعبد الله هذا هو كلنا، كل واحد منا كان يسميه عبد الله.. لم يكن جدعان يهتم بحفظ اسمائنا.. كلنا عنده عبد الله، وكفى الله المؤمنين عناء حفظ اسماء العجم!

كانت غرفة الحارسين تقع في نهاية الممر الذي يؤدي الى البناء الجديد المخصص لنا، والحقيقة انه كان بناء رائعاً، على عكس البناء الذي كنا نسكنه سابقاً، ذلك البناء القميء الذي كان يعج بالفئران والجيران بشكل غير محتمل..

هنا، في هذا البناء الجديد، كنا نعيش منعزلين تماماً عن كل شيء، ومع مرور الايام كدنا نحس باننا معزولون - ليس عن الحي الذي كنا نسكن فيه فحسب بل عن المدينة بأكملها.. ولولا ان الحارسين كانا يودعاننا ويستقبلاننا كلما خرجنا أو دخلنا الى البناء لكنا

شعرنا فعلاً بأننا موضوعون في قفص انيق خصصناه لأنفسنا.

والحارسان أولاء بدويان قدما من الصحراء: جدعان كان الحارس الليلي، ورغم ذلك فقد كان يقضي بعض ساعات النهار متجولاً حول المكان لأنه ليس ثمة ما يفعله غير ذلك، اما الحارس النهاري فاسمه مبارك، وهو رجل ضخم في الاربعين من عمره.. شديد السمرة، محني الظهر يمشي وكأنه قام لتوه من جلسة طويلة. كان يلبس البزة الرسمية المخصصة للحراس، وهي بزة كحلية ذات ازرار نحاسية كبيرة. كان ينام داخل الغرفة الانيقة، ويغطي نفسه بالشراشف البيضاء التي كانت تستبدل مرة كل اسبوع..

وكنا نحس ـ رغم بعدنا عن عالمي مبارك وجدعان ـ بأن بين الرجلين عداوة مستورة او كراهية، ثم ما لبثنا ان لاحظنا بأن جدعان لم يلبس قط البزة الرسمية، وانه كان يلبس دائماً عباءة خشنة فوق قمباز متسخ كان، في يوم مضى، ذا لون ابيض.. ولاحظنا ايضاً ان جدعان ـ على عكس مبارك ـ كان يرفض النوم داخل الحجرة الانيقة وانه صنع لنفسه سريراً عجيباً من ثلاثة الواح خشبية انتزعها من صندوق كبير ثم رفعها على ست قوائم وفرش فوقها قطعة من جلد ماعز اسود. وكنا نشاهده في آخر الليل يطوي عباءته الخشنة ويتوسدها ويغفو دون غطاء. لم نره قط داخل الغرفة الانيقة او داخل البزة الكحلية ذات الازرار الصفراء الكبيرة..

اغلب الظن، هكذا كنا نعتقد، ان جدعان يحتقر، بكيفية ما، زميله مبارك.. وان مبارك، بدوره، يشعر بالخجل امام جدعان حينما كان يقيسه بعينيه الصغيرتين الحادتين وهو هناك داخل تلك البزة

الرسمية العجيبة . .

وتأكد هذا الاعتقاد حينما استوقفني مبارك، ذات يوم، وطلب مني ان اكتب له رسالة شكوى الى رئاسة الشركة :

ـ شكوى ضد من يا مبارك . . ؟

سألت سؤالي باللهجة الجديرة بكلام يوجهه مهندس الى حارس له راتب يقل ست مرات عن راتبه، واتاني الجواب :

ـ ضد جدعان . . انه يرفض تنظيف المراحيض حينما يأتي دوره . .

ـ لماذا؟

ـ لست ادري، كان يكلف خادمكم بالعمل ويعطيه ثلاث روبيات . .

ـ وماذا يهمك انت طالما ان المرحاض ينظف في ميعاده؟

اتكأ على الحائط، كان غاضباً، ومضى يشرح الأمر بعصبية :

ـ اسمع يا استاذ . . منذ اسبوع رفض خادمكم ان يقوم بالعمل . . أتدري ماذا فعل؟ اقول لك، طلب مني انا ان انظف المراحيض مقابل خمس روبيات . .

ـ ولماذا لا يقوم جدعان نفسه بهذا العمل؟ أليس هذا جزءاً من وظيفته؟

هز رأسه، ثم نفض ذراعيه فوق فخذيه :

ـ نعم . . نعم . . ولكن اتدري لماذا لا يقبل ذلك؟ اقول لك، انه لم

يأت الى هنا ليشتغل..

- اذن ماذا اتى يفعل هنا.؟

عاد يهز رأسه، كان محتاراً بعض الشيء فمضى يقول بصوت منخفض:

- لا اعرف.. اقول لك.. ولكنني اعتقد انه هرب من أهله..

- اهله؟ انه شيخ مسن، لماذا يهرب من اهله.؟

جلس مبارك فوق علية جدعان، وحدق الي بعينين شامتتين ثم قال:

- حدث ذلك منذ زمان بعيد.. كان يريد ان يتزوج بنتاً لها شعر احمر، شاهدها مرة قرب مضارب أهله مع رجال كانوا قد أتوا لاصطياد الغزلان...

قلت مشدوهاً:

- جدعان؟ جدعان كان عاشقاً؟

- نعم، كان شيخهم قد كلفه بمرافقة الرجال والمرأة لمطاردة الغزلان.. أتعرف ماذا؟ اقول لك، أحبها وحينما غادرت صار كالمجنون.

تناول مبارك غصناً صغيراً وأخذ يحفر به الارض دون غاية ثم قال:

- انت تعلم، هناك يحكون أشياء كثيرة، يقولون، اقول لك، انها هي الأخرى احبته..

- أحبته؟ لماذا لم يتزوجا؟

ـ أية امرأة لها شعر أحمر تقبل أن تتزوج بدوياً؟ كان رجلاً طيباً، ولكن لا فائدة.. أتدري؟ اقول لك، لقد طلق زوجته!

قمت، ولكنني سألت قبل أن أمشي:

ـ لماذا يشتغل هنا، اذن؟

ـ قال انه لا يشتغل هنا.. قال انه انما يجلس هنا فقط كما يجلس الانسان في أي مكان من العالم.. قال، أقول لك، انه تعب كثيراً، وهنا يستطيع الانسان ان يأكل وهو جالس.. قال ايضاً، أقول لك، انه يريد ان يموت هنا بهدوء ولا يريد ان يعود الى أهله.. انه مجنون، أقول، هل تكتب الشكوى؟

مشيت الى الباب دون ان اجيبه، ثم صعدت الدرج الى غرفتي.

لم يكن الجلوس الى جدعان امراً سهلاً.. ورغم ذلك فقد حاولت مراراً دون يأس، وكنت في كل مرة أقف عاجزاً أمام عينيه القاسيتين الغائرتين وهو يسحب فوقهما سد الصمت، وحينما استطعت أخيراً أن أجلس الى جانبه فوق عليّته الخشبية الواطئة لم أكن في الواقع أقصد الى ذلك قصداً.. لقد وصلت متأخراً وكنت قد نسيت مفاتيح غرفتي مع صديق فجلست انتظر..

ـ كان علي أن أنام باكراً الليلة، غداً سوف نذهب للصيد..

ـ صيد؟

سأل جدعان السؤال ببرود فيما هو منهمك بلف تبغه داخل الورقة الرقيقة.

ـ نعم . . . صيد غزلان.

ـ كيف تصطادون الغزلان؟

ـ كالعادة. . بالسيارة.

هز رأسه، ومضى يلف التبغ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ تلحقون الغزال المسكين بالسيارة. . تفصلونه عن قطيعه، تطاردونه ساعات حتى يتعب فيقف، تنزلون من السيارة ثم تمسكونه كأنه دجاجة. .

أشغل اللفافة وسحب نفساً عميقاً منها ثم نظر مباشرة في عيني، وقال بصلابة:

ـ عيب!.

أحسست، فجأة، كما لو أن جدعاناً تعمد اهانتي، فاندفعت:

ـ عيب؟ كيف يصطاد الناس الغزلان؟ بالبندقية؟

ـ كلا، عيب. .

ـ إذن؟

أخذ نفساً آخر، وغسلني بتلك النظرة القاسية عبر غيمة من دخانه الثقيل وقال بهدوء:

ـ يجب ألا تصطاد غزالاً ابداً يا عبد الله. . . لا بالسيارة ولا بالبندقية. . .

ـ لماذا؟

نظر إليّ فجأة وكأن سؤالي جرحه، ثم هز اللفافة بين اصبعيه في وجهي والتمعت عيناه:

ـ هل جربت مرة ان تجلس في الصحراء فيأتي الغزال بنفسه إليك، يحك رأسه فوق ذراعك ويمد فمه الى رقبتك، يدور حواليك، ينظر إليك بعينيه الواسعتين، ثم يمضي.. أجربت ذلك..؟

ـ كلا.. هل جربته انت؟

وكأنه لم يستمع الى سؤالي همهم ساخراً:

ـ وتحكي عن الصيد.

لم اعد اطيق كبرياءه فانفجرت:

ـ انت ألم تكن صياداً؟

ـ نعم، منذ زمان بعيد يا عبد الله، منذ زمان بعيد!.

ومضيت شوطاً ابعد:

ـ كيف كنت تصطاد الغزلان؟

نظر الى الارض وفرك التراب بقدمه العارية ثم همس وكأنه يخجل من رفع صوته:

ـ بالصقر..

ـ بالصقر؟

ـ نعم! كلهم يفعلون ذلك.. ألم تسمع ابداً بالصقر؟.

نهض من مكانه، وسار بطيئاً حتى لم أعد اتبين سوى وهج اللفافة ثم عاد فجلس إلى جانبي ومضى محطماً سد الصمت:

ـ حينما تشاهد غزالاً ارفع كيس الجلد عن عيني الصقر وسوف يطير كالبرق وينقض كالصاعقة فارداً جناحيه فوق عيني الغزال فيقف.

قلت شامتاً:

ـ ثم تمسكه كأنه دجاجة؟

هز رأسه بألم وكرر:

ـ نعم. تمسكه كأنه دجاجة!.. اسمع يا عبد الله..

استدار فواجهني، ثم رفع ساقيه وتربع فوق العلية ووضع كفه الخشنة فوق ركبتي، وكان الصوت، عبر تلك الظلمة، يأتي من بعيد:

ـ اسمع يا عبد الله. قبل عشرين سنة كنت صياد غزلان.. كان لديّ صقر رائع اسمه نار، كان احسن صقر سمعت عنه القبيلة طوال سنوات.. حينما يطير فجناحاه يحجبان ضوء الشمس، وكان يطوي جناحيه ويسقط كالحجر، وكان الربع يقولون: «نار جدعان احرق الغزلان..».

خيم الصمت، وخيل الي انه قد كف عن الحديث ـ ورغم الظلمة فإنني كنت على يقين بأن وجهه يكتسي، هذه اللحظة، بتلك السعادة المجهولة التي يكتسي بها وجه انسان يحكي عن أشياء أحبها، ثم فقدها منذ زمن بعيد إلا أن الصوت عاد موهناً يكاد لا يسمع:

ـ قبل عشرين سنة.. رفعت كيس الجلد عن عيني نار فانطلق

محلقاً . . لم يكن في المدى إلا غزال واحد، وكنت استطيع ان أتبين لونه عن بعد، انه لون احمر أقرب الى البني، كلا! ـ انه لون غزال . . انت لم تر ذلك اللون ابداً، انه لون غزال، لون لا يمكن ان يكون الا لون غزال، لقد حلق نار عالياً عالياً، ثم سقط ضاماً جناحيه كالحجر . . وحينما صار على علو قليل من الغزال فرد جناحيه . . وجمد في الهواء لمدى هنيهة، ثم هوى على جنبه منسفحاً كالورقة حتى كاد يلامس الارض وعاد فحلق من جديد وطار عالياً بينما وقف الغزال وكأنه تسمر . . كنت احسب ان ناراً انما يستعرض جبروته امام الحيوان المسكين كما يفعل كل الاقوياء، ولكنه قام بنفس ذلك الاستعراض اكثر من ست مرات، بعنف عجيب، ثم عاد، فحلق من جديد وعاد الي . . لقد رأيته يفرد جناحيه الهائلين، ويحط ببطء فخور فوق خشبته المغروزة في الرمل ويغمض عينيه . . فيما جاء الغزال وراءه على قوائمه الدقيقة كأنه المضبوع.

أمسكت بجدعان من كتفه، وايقظته، ولقد بدا لي وكأنه كان نائماً، وسألته:

ـ ثم ماذا؟

ـ عدت الى أهلي . . لقد اعتقدت اول الأمر أن ناراً لا يريد ان يصطاد في ذلك اليوم . . انت تعرف، ان للصقور أخلاقها الخاصة، ولكن الذي حدث كان افظع من ذلك . . لم يغادر نار خشبته بعدها أبداً، بقي واقفاً بصدره الفخور ومنقاره المعقوف في ظل الغزال الذي لازمه . . لم يأكل طوال اسبوع كامل رغم انني نزعت كيس الجلد عن عينيه، بل انه لم ينظر الى أية قطعة لحم وضعتها أمامه، لم ينظر حتى الى الغزال الذي بقي واقفاً الى جانبه جامداً، يحدق اليه بصمت . . وكنت

كلما آتي لأجرب اطعام نار أفاجأ بالغزال الصغير يحوم حوالي كالطفل، يفرك أنفه الوردي فوق ظاهر كفي، يمد فمه الى عنقي، يحك رأسه بذراعي.. ثم يدور، ويقف الى جانب الوتد الخشبي بهدوء.

نهض جدعان، وسار حول العلية الخشبية مخرجاً علبته الصدئة، بادئاً لف تبغه من جديد.. لم اكن اتبين ملامحه في تلك الظلمة، ولكنني سمعت صوته مرة اخرى، من كهف بعيد.

- صحوت ذات يوم فوجدت ناراً ملقى الى جانب خشبته.. كان صدره عارياً وهزيلاً، وكانت عيناه مغلقتين، لم أجد الغزال، كان قد مضى، اغلب الظن، خلال الليل وبعد ان قضى نار..

قمت من مكاني ووقفت امامه، كان قد انتهى من لف تبغه فأشعلت عود الثقاب وأنا أسأل:

- ترى أين ذهب الغزال؟

وعلى الضوء الشاحب لعود الثقاب رأيت وجهه كما كان دائماً: هزيلاً قاسياً بارداً، وتحركت شفتاه:

- ذهب ليموت عند أهله.. الغزلان تحب ان تموت عند أهلها.. الصقور لا يهمها أين تموت!

بيروت ١٩٦١

كفر المنجـــم

تذكرت في نفس اللحظة التي ولجت بها الباب، انني أكره هذا المقهى. وانني كنت اعتزم منذ الصباح، ان أجد لنفسي مكاناً آخر، امضي فيه ساعة أو ساعتين. . الا انني خطوت الى الداخل، مثلما كنت أفعل كل يوم، واتجهت الى الركن حيث استطيع ان اجلس وظهري الى الحائط. . وفي اللحظة التالية نسيت كل شيء عن المقهى وعن كراهيتي له، وانتابني ندم، لأنني لم اشتر صحيفة، ولاحقت بعيني فتاة تلبس رداء ضيقاً، وتساءلت فيما اذا كان كلامي، هذا الصباح، قد آذى «مي». . وكأن ذلك كله يحدث الآن مثلما حدث كل يوم. . ومثل كل يوم، دفع «الغرسون» فنجان القهوة امامي قبل ان اطلبه، فاندلق السائل الداكن ولوث الصحن، مد يده ليسحبه فقلت له: ان ذلك لا يهم، وانه لا ضرورة لتغيير الصحن المتسخ، لأن حياتنا كلها كذلك، ومثل كل يوم، ابتسم دون ان يفهم.

خارج النافذة الزجاجية المحطمة، كان العالم يتكون بضجيج كل يوم. . ولقد حدث الامر فجأة، وكان غريباً ان يحدث مثل ذلك الوضوح وتلك الحدة: كنت ارفع ساقي لأضعها فوق الساق الأخرى حين انتابني، فجأة، شعور ناصع البياض، حاد الاطراف، ان أمراً ما سوف يحدث. . وبأن هذا الأمر سوف يحدث لي انا بالذات بعد قليل. . وكان ذلك الشعور غريباً ومفاجئاً، حتى انني تركت ساقي معلقة في الهواء هنيهة، وبصوت خفيض قلت لنفسي انني واهم منافق،

الا ان الشعور لبث متكلباً في صدري وعيني، وشعرت بأن هذا انما يحدث لي لأول مرة في حياتي كلها، ورغم ذلك فقد واصلت تيقظي وحذري ورفضت بهدوء، أن أنصاع لهذا الشعور المفاجىء. . مددت يدي الى فنجان القهوة ورفعته محاولاً ان افعل ذلك مثلما كنت أفعله كل يوم. . الا ان يدي تصلبت، كأنما بفعل قوة غير مرئية، في منتصف الطريق حين ارتسم في باب المقهى امام عيني، صديقي القديم ابراهيم. .

كان واقفاً يجيل بصره في انحاء المقهى، كأنما يبحث عن انسان ما، وقلت لنفسي، ان غياب خمس عشرة سنة لم يغيره كثيراً. . فحركاته ما تزال تلك التي اعرفها. . وفي اللحظة التالية تذكرت- بوهن- ان ابراهيم قد مات منذ خمس عشرة سنة، وان هذا لا بد ان يكون رجلاً آخر يشبهه تمام الشبه، ولكنه رآني فهز رأسه هزة خفيفة، وسار بين الموائد معتذراً بهدوء، لأولئك الذين طلب منهم ان يحركوا مقاعدهم ليسمحوا لجسده الضخم بالمرور، وحين وصل الى طاولتي، سحب كرسياً وجلس وهو يتنهد، دون ان يمد يده لمصافحتي، ثم تلفت حواليه وطلب فنجان قهوة، وزقزقت مفاتيحه وهو يدسها في جيبه، وسألني «كيفك؟» الا انني لم أجب. . وفجأة بدا الامر طبيعياً جداً، فأخذت ارشف قهوتي وانا انظر، عبر النافذة المحطمة، الى الطريق. .

* * *

كنت انا وابراهيم زميلين في صف الشهادة الثانوية، وكان ابراهيم شاباً في غاية الحساسية، بالرغم من انه كان يحب التظاهر بعدم المبالاة،

مثلما هو الآن، وقد كان مبرزاً ذكياً، حتى ان مدير مدرستنا كان، في خطاباته الاسبوعية، يشير اليه كنموذج مثالي لطالب في غاية الكمال. . وكنا نعتبر نجاح ابراهيم البارز في الشهادة بديهية لا تناقش، وكان ثمة اعتراف ضمني، بأن المتفوق من الطلاب، يجب ان يعتبر نفسه ثانياً إذا ما فكر بابراهيم. . الا ان المفاجأة أتت صاعقة حين انتهت الفحوص، ورسب.

اذكر جيداً، الآن، ان ابراهيم قد اختفى في اليوم التالي. . شاهدناه آخر مرة واقفاً امام لوحة الاسماء، الا ان أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه. . وما من شك في أنه قرأ القوائم مرات طويلة بطيئة، ويداه معقودتان وراء ظهره ثم استدار دون ان ينظر الينا، ومضى. . وفي اليوم التالي قيل لي انه قد انتحر. . ثم نشرت الصحف اخبار انتحاره، فقالت انه استعار زورقاً مضى به الى عرض البحر، ثم شوهد الزورق يتأرجح فارغاً، فوق الموج، والى جانب الخبر نشرت صورة من صوره القديمة: كان شعره مفروقاً وعالياً وكان يبتسم. .

مد الي علبة لفافاته فسحبت واحدة اشعلها لي: كانت ولاعته من ذهب وكذلك أزرار كميه. ولاحظت ان لفافاته فاخرة، وان قماش بذلته من نوع نادر. . وبالرغم من انه كان يراقبني وانا ادرس ثراءه، الا انه لم يبد انه شعر بالحرج، وخيل الي انه اعتاد اعجاب الناس باشيائه، وحين وصلت قهوته رشف رشفة طويلة بتلذذ، وامتص شفتيه بصوت مسموع ثم سأل مرة اخرى: «كيفك» فقلت دون ان افكر، «انني زهقان!» هز رأسه، وقبل ان يرشف رشفة ثانية قال: «ماذا تعرف عن الزهق؟».

* * *

كان فشلاً لا يصدق ولا يحتمل، وحين قرأت الاسماء المعلقة على اللوحة الف مرة تأكدت من شيء واحد، على الاقل، هو انني لا استحق الحياة. . استدرت وغادرت اللوحة ومشيت باتجاه داري: كنت احس بألم حقيقي في كل انحاء جسدي، كان العالم يبدو في عيني وهمياً. فقررت من جديد انني لا استحق الحياة، ولكنني- ايضاً- لا استحق الموت، وقلت لنفسي انني يجب ان استأجر زورقاً ابحر فيه الى عرض البحر، حيث انقلب الى لحم مقدد بالملح والشمس، شيئاً فشيئاً، دون ان يحس بي الاحياء، ودون ان احسب على الاموات.

الا ان الرجل الذي يؤجر زوارق متينة، دعاني الى تناول فنجان قهوة. . وفيما كنا جالسين في كوخه الخشبي المهلهل، متقابلين، نرتشف قهوته الداكنة بين الشباك المقطعة، والاصداف وألواح الخشب والسلاسل، حكى لي عن حلم كان قد واصل التفكير فيه طوال خمسين سنة، إلا ان فرصة تحقيقه لم تسنح له قط. . وقد قال انه لم يكتشف السبب إلا منذ فترة وجيزة، حين تبدى له فجأة، ان تقليب الحلم هذا على وجوهه يعرقل تحقيقه، ولا ينفع إلا في ابعاده. وقال بأن هذا الاكتشاف لم يفت من عضده فقرر، بينه وبين نفسه، ان يجد من يحل محل. .

وقام الرجل بعد برهة فأشعل النار ومضى يحضر فنجان قهوة آخر، ولقد احسست بشيء يشبه الخدر في ذلك الجو المتعب المكون، كما خيل إليّ، من هدير الموج المتصل بكل رتابته القدرية القاسية.

وحين عاد الرجل بإبريق القهوة، قال إنه سيعطيني زورقاً لو توجهت به الى حيث يريد هو. وبعد ان صب قهوته الداكنة في الفنجان الصغير

قال: ان حلمه الابدي المعجز جدير بأن يتحقق على يدي رجل لا يحب الحياة ولا يستحق الموت.

* * *

«ورثت هذا الكوخ الخشبي المهلهل عن صياد عجوز كنت اعرفه، ثمناً لوعد قطعته له بأن اكرم موته حين يوافيه الاجل، وورثت مع هذا الكوخ الحلم المرهق، الذي واصلت التفكير فيه اكثر من خمسين عاماً.

لقد روى لي ذلك العجوز المجرب، نبأ اكيداً عن وجود مدينة كبيرة قائمة كالقلعة وسط البحر، وكان العجوز قد رأى من اكد له بأن تلك المدينة العجيبة تشابه المدن التي تكتب عنها قصص خرافية: انها محفورة في صخور من ذهب، ترابها ذهب، حصاها ذهب، وكل ما فيها من ذهب، ولكنه ذهب لا يلمع وربما كان لونه غير لون الذهب الذي نعرفه، ايضاً، إلا ان هذا لا قيمة له لأنك- فور ان تغادر تلك المدينة- يتحول ذهبك الى أصفر لماع لا يقل قيراطاً عن الذهب الذي تعرفه...

قال العجوز المجرب، ان هناك شيئاً سحرياً في الامر، وهو شيء واحد فقط: ما من احد يعرف الطريق إلى تلك المدينة، إلا من يعتزم الوصول إليها حقاً.. اما اذا كان المرء خائفاً او شكاكاً او متردداً فإن الطريق ستلتبس عليه، وقد يضيع قبل ان يشاهد تلك المدينة ويعيش فيها. .كثير من الرجال عادوا من رحلتهم إليها قبل أن يدخلوا فيها، لأن عزمهم لم يكن كاملاً ولا- اكيداً...

على انه ليس ثمة ما هو مؤكد تماماً- قال العجوز المجرب- ذلك ان

احداً ممن ذهبوا الى هناك لم يعد ليروي الحقيقة، وكل ما اكده هو ان من يرغب حتماً في الذهاب الى هناك يذهب حتماً. . واذا ما اراد، اكيداً، ان يعود من هناك عاد حتماً. . ».

* *

كفر المنجم. !

فور ان شاهدتها في الافق، سقط اسمها في ذهني دون ان اقرأه او اسمعه: كانت الطريق أقصر مما ظننت، وقد شاهدتها عن بعد فكففت عن التجديف، واخذت أتأملها وهي مكومة في الافق كجبل اسود في المدى المترامي لزرقة البحر. . والواقع انني احسست بشيء سحري وانا احدق إليها. . فبالرغم من لونها الاسود القاتم فقد كانت تتوهج كشمس اسطورية، وكانت تبدو- وهي تلتمع ملساء في الافق- كأنها زنجية مقرفصة.

كان الامر بالنسبة لي، مثل قراءة كتاب. . ففيما كنت اسوق زورقي منزلقاً فوق الامواج الصغيرة، كانت الافكار تتساقط في رأسي كأنها تنصب مع هدير الموج: قبل سنوات قليلة لم يكن لكفر المنجم اي وجود. . وكان البحر يمتد بعيداً الى ما لا نهاية. . الآن لا احد يعرف فيما اذا انبثقت من قاع البحر او سقطت من السماء. أهي سائل بركاني متصلب ام هي نجمة محروقة سقطت مثلما تسقط النيازك؟

* * *

فتحت كفر المنجم ابوابها فدخلتها ونقبت لنفسي في الصخرة العملاقة كهفاً جعلته بيتي ورحت املأ اكياسي ذهباً اجده في اي مكان تمتد إليه يدي، او تخدشه أظافري، وفي كل مرة تنسلخ عن الصخرة قشرة الذهب تنمو مكانها، بأسرع مما ترمش اهدابك، قشرة اخرى..

تبدو لك فكرة كريهة، ان يعيش المرء في بيت يشبه الكهف.. ولكن هل فكرت بكهف جدرانه من ذهب؟ انه الشيء الوحيد الذي لم اعتده والذي ما زال يبدو لي خارقاً حتى بعد خمس عشرة سنة.

نمت اول ليلة، بعيداً عن كل شيء آلافاً من الاميال المترامية في مدى معدم، تطن الوحدة في اذني مثل صهيل جواد يحتضر، ولكن توهج الجدران كان يسكت عويل الريح في صميمي.. وفجأة احسست بأن ثمة شيئاً غريباً في الكهف، وحين قمت اتحسس الجدران انزلقت كفاي على سائل ينز من مسام الحجارة السوداء الثقيلة..

انه سائل البصاق، تنزه الجدران كل مساء.. ولكنك ما تلبث ان تعتاده.

* * *

قمت، دفعت ثمن فنجاني وفنجانه، فلم يمانع.. نظرت إليه مرة اخرى لمجرد انه كان جالساً هناك بكل بساطة، ثم خرجت الى الشارع.

مثل كل يوم: الناس يتدافعون، والسيارات تتبارى، وشتائم بائع الكعك: سوف امشي شارعاً وراء شارع. واصعد السلم وافتح باب

غرفتي، واخلع حذائي، ثم انام بكامل ملابسي.. مثل كل يوم...

وفجأة حدث ذلك الشيء مرة اخرى: شعرت بسعادة مفاجئة، وضعت كفي في جيبي، وهززت رأسي وانا ابتسم واسارع خطوي: «كلا.. ابراهيم لم يعد من كفر المنجم بعد..»

بيروت - ١٩٦٣

ذراعه وكفه وأصابعه

فتح الرجل العجوز باب الغرفة فتصاعد ازيز متعب عليل ورمى ضوء الغرفة ظله الصغير فوق حجارة الممر. كان الليل مقمراً صامتاً، وقف برهة صغيرة ليتلمس بعصاه الغليظة بداية العتبة، ثم انسل لاهثاً بخطوات قصيرة متجهاً الى حديقة جاره. .

تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها غرفته العارية منذ اربع سنوات على الاقل حتى انه كان على وشك ان ينسى كيف يتعين على المرء ان يسير دون ان يقع. . ولكن الأمر لا يحتاج، الآن، الى مزيد من الاصطبار، ربما يكون قد امضى حياته جاهلاً تعساً، لكنه قد تعلم اخيراً درساً صغيراً واحدا، بسيطاً ولكنه اساسي للغاية: اذا اردت ان تحصل على شيء ما، فخذه بذراعيك وكفيك واصابعك. .

وهو، على اي حال، لا يريد شيئاً كبيراً الآن. . لقد انتهى العمر ولم يعد في القلب طاقة لمزيد من النبض. . ولكنه يريد، بكل بساطة، أن يحصل على ذلك الشيء الصغير الذي فكر به طوال اربعة اسابيع. . واذا تصور ان احداً من الناس سوف يمد له يد المساعدة فلسوف لن يحصل على ذلك الشيء الصغير ابداً. . اذا اراده فعليه ان يأخذه بنفسه، بذراعيه وكفيه واصابعه. .

كانت ركبتاه ترتجفان كغصن مقصوف من وسطه وهو يضرب في الممر الصامت المعتم، وحين وقف بعد لحظة ليستجمع انفاسه انفلتت

من بين شفتيه جملة غاضبة: «ايها العجوز الخرف!» واكتشف في تلك اللحظة ان هذه الجملة الصغيرة ترددت على لسانه طوال السنوات الأربع الفائتة دون كلل ودون توقف، ورغم طول الزمن فانها لم تفقد شيئاً من معناها ومغزاها ولؤمها. ما زالت تبعث في عظامه الواهنة غضباً متوقداً كأنه يسمعها لأول مرة. كأن بكري، ابنه، يقولها الآن، في هذه اللحظة، وهو واقف وسط الغرفة واضعاً كفيه في جيبيه، محدقاً الى ابيه ببرود..

هز عصاه بغضب وضيّق جفنيه ليستطيع ان يرى بوضوح، ولكنه لم يستطع ان يخطو خطوة واحدة، كان الغضب قد نما في صدره حتى سد حلقه: ايها العجوز الخرف! ترنح قليلاً ثم اتكأ على جذع قريب.. عجوز خرف!، ولكن ليس الآن.. لقد تعلمت اخيراً هذا الدرس الصغير المفيد: اذا اردت شيئاً فخذه بذراعيك وكفيك واصابعك.. لا، لن اقف ذليلا امامك، يا خيري، مرة اخرى.

ومرة اخرى تصور الحادث بكامله: كان ذلك منذ اربع سنوات حين اتى خيري يقول له بأنه لن يستطيع ان يعيش معه، ولكنه سوف يمنحه غرفة في مكان ما وخادمة تأتيه ساعة في كل يومين لتعنى بشؤون ملابسه وطعامه.. وفي تلك اللحظة عرف انه فقد كل شيء في العالم، وشب فيه غضب حزين مشلول، فأجال عينيه حوله وليس يدري لماذا لم يقل شيئاً بل اتجه الى خيري الواقف في وسط الغرفة واضعاً كفيه في جيبيه، وانهمر على ركبتيه امامه وحاول ان يقبل يده، ولكن خيري شد يده بعنف وتراجع خطوة الى الوراء وصاح بكل ما في وسعه:

- انت؟ ايها العجوز الخرف!

انا عجوز خرف! عجوز خرف لأنني اردت ان اقول لك بأن الحياة ليست غرفة وخادمة وملابس وأكل. أعجوز خرف لأنني احببتك، لأنني كنت ذليلاً على قدميك. . لأنني طالبتك، رجوتك، توسلت اليك ان تعطيني ما اريد، لأنني لم آخذ ما اريد بذراعيّ وكفيّ واصابعي. .

«ايها العجوز الخرف!» قالها مرة اخرى وهو يجرجر قدميه فوق رمل الحديقة ومرة اخرى بعثت في احشائه غضباً لاذعاً مميتاً، الا انه وجد السلوى حين عاد يفكر بأنه سوف يحصل على ما يريد هذه المرة، ودون ان يطلب ذلك من احد. . كان بوسعه ان يطلب من الخادمة، من جاره، من ايّ صبي يعبر الطريق في الصباح ان يتجه الى ركن الحديقة ليحمل له القط الصغير الا انه آثر ان يفعل ذلك بنفسه. . لقد قطع على نفسه عهداً بأن لا يطلب شيئاً من احد قط. . انه لا يستطيع ان يحتمل خذلاناً جديداً، ولو كان خذلاناً تافهاً. .

في ركن الحديقة استطاع ان يرى القطة السوداء مستلقية الى جانب الحائط وقد رفعت رأسها محدقة اليه بعينين لامعتين. علّق عصاه على كوعه واخرج من جيبه كيساً صغيراً وانحنى يفتش عن صغارها، اثنان منها يضطجعان الى جانبها بعيون مغمضة واذناب قصيرة، وغير بعيد عنها كان يستلقي الصغير الثالث فاتحاً حدقتيه على وسعهما ضارباً بذيله تراب الحديقة ضربات موقوتة. قال الشيخ في ذات نفسه: «ها هو ذا» اقترب منه وحمله: كان في حجم قبضته، اسود الشعر كالليل اخضر العينين كالربيع، اسقطه داخل الكيس ببطء فماءت امه بصوت فاجع وانتصبت واقفة فوق قوائمها الدقيقة، الا انه لم يبال، لف فتحة الكيس حول معصمه وكر عائداً ببطء. لحقته الام بضع خطوات ثم توقفت

واخذت تتابعه بمواء متقطع، القى بنظرة سريعة اليها، وردد في اعماق صدره: «اذا اردت شيئاً فخذه بذراعيك وكفيك واصابعك».

كان يرجف مستثاراً حين فتح باب غرفته العارية فأز بصوت عليل متعب، فتش ببصره عن قطه الكبير الابيض فوجد ممدداً تحت الطاولة، وفكر مستمتعاً: «سنرى الآن ما الذي سيحدث...» اسقط الكيس على الأرض فخرج القطّ الصغير الأسود ببطء ووقف ينظر حواليه راجفاً، ورفع القطّ الأبيض الكبير رأسه وحدق برهة ثم مشى بطيئاً متكاسلاً وحين وصل الى القط الصغير دار حوله دورتين، ثم شمّه عن كثب ومدّ يده فجس رأسه، وعاد ادراجه الى تحت الطاولة..

احس الشيخ بخيبة امل صغيرة ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام واتجه عائداً الى سريره دون ان يكف لحظة واحدة عن مراقبة القطين، الا ان شيئاً لم يحدث طوال ساعة. وحين اوشك الشيخ ان يغفو سمع صوتاً غريباً في الغرفة ففتح عينيه مفكراً، ثم اتجه ببصره الى الكيس فلم يجد القط الأسود الصغير. قام من سريره بثقل، ونظر تحت الطاولة.. كان القط الأبيض الكبير مستلقياً على جنبه فيما كان القط الأسود يغرس رأسه بضراوة مفتشاً عن ثدي يرضع منه.

قال العجوز بصوت مرتفع: «انه جائع» وحين قام عن سريره ليفتش عن شيء ما يطعمه للقط الصغير الأسود راودته فكرة مفاجئة ما لبثت ان بعثت فيه فرحاً حقيقياً: «لا، لن اطعمه، لنر ما الذي سيحدث..»

عاد الشيخ الى سريره فجلس على حافته فاركاً كفيه الكبيرتين

ببعضهما، كان القط الاسود الصغير ما زال يحاول جاهداً ايجاد ثدي يدر له الحليب في بطن القط الأبيض، الا ان القط الأبيض قفز، بعد لحظة، الى الطاولة واستلقى فوقها بينما اخذ الآخر يموء ناظراً اليه مبتئساً لعجزه عن اللحاق به..

قال الشيخ بصوت مرتفع: «ايها القط الصغير المسكين! انت لا تعرف ان هذا ليس امك.. ثم انه قط ذكر لا يستطيع ان يهبك شيئاً..»

هز رأسه بمرارة ومضى مخاطباً القط الاسود الصغير:

- «اعرف انك جائع وانك لا تأكل الا ما ترضعك امك.. ولكن هذه هي الحياة ايها الصغير المسكين.. الناس يفقدون امهاتهم وآباءهم، والامهات والآباء يفقدون ابناءهم، وعلى كل مخلوق ان يتدبر امره..»

إلا أن القط الصغير واصل مواءه الفاجع بصوت ثاقب، وكان القط الآخر قد اقترب من حافة الطاولة وأخذ ينظر، من فوق، وبعينين مفتوحتين على وسعهما الى المخلوق الأسود الصاخب على رغم ضآلته، بالطلب الغريب..

ورغم كل الضجيج الذي كان يحدثه مواء القط الصغير استلقى الشيخ في سريره سعيداً بالحياة التي بعثت، فجأة، في الغرفة العارية، بل ان المواء المتواصل الرفيع لم يمنع الشيخ من الاستسلام للنوم. وحين صحا في ابكر الصبح، اتكأ فوق وسادته واجال عينيه في أرجاء الغرفة مفتشاً عن القطين ثم رآهما الى جانب العتبة: القط الأبيض الكبير

مستلق على جنبه تاركاً المخلوق الاسود الصغير يمتص شعر صدره بنهم، مصدراً صوت رضيع صغير. .

نهض من سريره وانحنى فوق القطين وقال بصوت مبحوح: «ورغم ذلك، ايها الصغير المسكين فانك لن تشعر بالارتواء. .» وفي اللحظة التالية رفع القط الأبيض رأسه وحدق الى الشيخ بعينين متوسلتين ثم عاد فأغمضهما باستسلام، وكأن الشيخ عرف ما الذي يريده القط فانحنى مرة أخرى فوقه ومضى يحادثه بصوت مبحوح:

- «انني اعرف بأنك غير راض عني. . ولكنني انا الآخر غير راض عن ايما شيء. . صحيح انني اخذته من حضن امه ولكنني، انا، طردت من بين ذراعي ولدي، خيري الذي صرفت من اجله حبات عينيّ. . يجب ان تفهم ذلك ايها القط الأبيض الكبير. . . لقد عشت معي اربع سنوات في هذه الغربة المجنونة. .»

إلا ان القط لم يفتح عينيه مرة اخرى واكتفى الشيخ بأن هز رأسه باصرار واستدار عائداً الى سريره وقبل ان يستلقي تساءل بصوت مسموع: «حتى متى سيستمر ذلك؟ لا بد من ان تأتي اللحظة» ولم يجد مانعاً يمنعه من الاستسلام للنوم مرة اخرى.

حين انفتح الباب فقط تذكر ان اليوم هو موعد الخادمة، فطمر رأسه تحت اللحاف كعادته. كان يكره هذه الخادمة الصارمة، ويرفض ان يتبادل معها الحديث مستمعاً بصمت وبصبر نافد الى ثرثرتها التي لا تنتهي. . ولكنها اقتربت من سريره هذه المرة اقتراباً بشعاً، سمع صوت حذائها يخطو اليه ثم يتوقف، ثم سمع شهقتها في نفس اللحظة التي رفعت فيها اللحاف عن رأسه. نظر اليها وهي تحدق اليه بعينين

مذعورتين وأشارت الى العتبة وهي تصرخ:

ـ انظر هناك!

وببطء استوى الشيخ جالساً في سريره وألقى ببصره الى العتبة. بادىء الأمر لم يصدق عينيه، إلا ان المنظر كان واضحاً وحقيقياً: القط الاسود الصغير ما زال مستلقياً هناك وقد غرس انيابه الدقيقة في صدر القط الابيض الممدد بسكون راض، فاتحاً عينيه العميقتين عن نظرة اكتفاء، كان الدم يسيل لامعاً قانياً خلال الشعر الناصع البياض، فيما كان القط الرضيع ماضياً بامتصاصه بنهم وبصوت مسموع.

بيروت ـ ١٩٦٢

عشرة امتار فقط

قادتنا الظروف نفسها تقريباً للسفر الى هناك. . لقد قبلنا بنوع من الاختيار البطل، ان ننفي انفسنا مقابل ان نرسل لعائلاتنا ما يقيم اودها. وحينما التقينا هناك حاولنا جهدنا ان نجعل الحياة محتملة بشكل من الاشكال. .

ودون ان ندري تماماً استطعنا ان نشكل بعفوية دوائر واسعة من العلاقات العادية: كانت الحياة، هناك، جافة يابسة، ولم تستطع العلاقات الواسعة تلك ان تدخل الى حياتنا الا شيئاً بسيطاً وتافهاً من النكهة والمذاق، كان الرجال طيبين في مجملهم وان جعلتهم الحياة اكثر جلافة وخشونة، وسنة بعد سنة اعتدنا ذلك النوع من الحياة واعتدنا خشونة العلاقات ورضيناها ثمناً للعلاقة نفسها. . . كانت اغلى شيء يمكن للمرء ان يحصل عليه في ذلك المنفى.

كنا نمضي ايام العطلات في تجمعات صغيرة نلعب الورق، ونشتم. . ونسلي انفسنا ـ هكذا كنا نسمي الامر مجرد تسلية ـ بمقامرات صغيرة. . واليوم، الجمعة، غادرت بيتي المرمي في طرف المدينة الساكن، وقلت لنفسي: سأمشي مشياً الى بيت صديقي. .

منذ الصباح، منذ صحوت، وانا اخوض في نقاش سخيف مع زميلي في البيت المنعزل. . مجمل القصة انه كان يستمع اليّ وانا احاور المرأة

التي اعتادت ان تأخذ ملابسنا وتغسلها على شاطىء البحر. . . والحقيقة انني كنت احسبه نائماً، على اي حال. . . لم يكن نومه او - حوه يهمني، كانت المرأة يافعة نضرة وان كانت قذرة، وكان وجهها مدوراً:

- هل انت وحدك؟

- نعم. ادخلي. . . هيا. .

- كلا! كلا! انا اعرفكم، سوف اجد في الداخل عشرة رجال على الاقل ولسوف يتناوبونني. . انتم تكذبون دائماً. .

امسكتها من رسغها، كان لدناً وناعماً الا ان صديقي اسقط شيئاً على الارض فهربت المرأة مذعورة.

- لقد اسقطت المرآة عمداً. .

- نعم. . عمداً. . ما كنت اريد ان تتصرف هذا التصرف الشائن!

- اي تصرف شائن تتحدث عنه؟ انت ما زلت طفلاً في هذا البلد، وغداً سوف تذوب اسى وشوقاً!

كان الشارع طويلاً وصامتاً وبعضه كان ترباً. . وفكرت وانا اسير وحيداً اتصبب عرقاً تحت الشمس المتوهجة بشكل لا يطاق ان هذا ليس الا محض جنون. كان عليّ ان استأجر سيارة، فليس من الممتع ان يسير المرء في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا الشارع، الا انني واصلت المسير كأن الفكرة لم تكن تعنيني على الاطلاق. .

ما معنى ان اقول له: هذا مجتمع غير متوازن. . . امرأة واحدة لكل سبعين رجلاً، ويا ليتهم يرونها ! ان كل شيء يفقد معناه حين يعتاد

المرء عليه.. انا العب الورق كل بعد ظهر، اخسر واربح واشتم واتشاجر.. ثم يشرق صباح اليوم التالي... اما اذا دخلت المرأة الى بيتي.. اذا ذهبت الى السرير القذر المبلل بعرق الصيف والذي يفوح برائحة النوم فثمة شيء انساني جديد يحدث.. وهذا امر يستحق الاهتمام!

ـ كيف؟ انت تغرر بفتاة بريئة.. الانسان يجب ان يتحكم بشبقه!

اوه! كم نحن سخفاء حين ندخل الحضارة قسراً الى اليأس والاسى الانسانيين..

ـ تكسي يا سيدي!

ـ كلا، لقد وصلت..

امامي اكثر من نصف ساعة مسير.. شيء مضحك ان يضع الانسان نفسه في سيارة، مستفيداً من الحضارة ثم تبقى المسافة بينه وبين إنسانيته معطلة تماماً!

تباً لهذه الحضارة التي نحسن التشدق بها كما نحسن لعب الورق!

ـ لو افترضنا ان المرأة طاوعتك ودخلت الى البيت.. ماذا ستربح من الامر كله؟ ألن يؤنبك ضميرك فيها بعد؟

ـ ضميري؟ ايها الصغير، ان ضميري هو حاجاتي، رغباتي.. مطالبي البشرية العادية.. لقد تعلمت هذه الفلسفة هنا.

أمرغم أنا على تقديم التفسير لهذا السيد المهذب؟

الحر ما يزال قاسياً ولكن الرغبة في المسير كانت ايضاً ما تزال

قاسية . . في ظل العمارة المجاورة كان رجلان يلعبان طاولة الزهر امام دكان، الرجلان سمينان طويلان على قدر ما استطعت ان اخمن من جلستيهما . . ورغم ان الرجلين كانا يلعبان باهتمام الا انني لاحظت، وانا على بعد عشرة امتار منهما تقريباً، انهما يتحدثان في موضوع آخر غير اللعب .

وكما يستطيع الانسان ان يفكر بعدد كبير من المواضيع دفعة واحدة، كذلك استطعت ان اشاهد المنظر كله، من مكاني، دفعة واحدة . . كان يقف الى جانب الرجلين رجل ثالث نحيل يتابع بعينين متيقظتين كلا الرجلين بلهفة . . . وبدا لي كمن يحاول ان يتلفظ بين الفينة والاخرى بكلمة ما مقاطعاً الآخرين، الا انه كان يرتد للصمت مرة اخرى بنوع من الذلة، وبالاجمال كان وجهه غير مريح اطلاقاً . . . وكان يمسك بيده الكبيرة زند طفل صغير، في حوالي السادسة من عمره، وكان الطفل قد دور رأسه الى الشارع، واخذ ينظر بفرح واهتمام الى السيارات والناس، فيما ادخل اصبعين من اصابعه في فمه واخذ ،غير عابىء بأي شيء، يمتصهما بصوت مسموع. . .

سوف يكون رفيق الآن بانتظار شريك اللعب، لا بأس، فلينتظر . . ليس في هذا البلد احلى من لحظة حلم يعيشها الانسان حتى ولو تحت شمس حارقة، خارج المكان وخارج الزمان. كان وجه الغسالة وجهاً مدوراً رائعاً، وشفتها السفلى ناضجة على وشك ان تسقط او تنفلق . . لو لم يسقط ذلك الغبي مرآته لحدث نتوء ما في العجلة المصقولة المدورة .

اما قصة الضمير! . .

كان الوقت ظهرا، والطقس حارا. . ولم يكن، ثمة عدد كبير من الناس، وكانت السيارات قد قلت عن ذي قبل وبدا الجو كأنه على وشك ان يمطر ماء ساخناً. .

ـ تكسي يا استاذ؟

ـ اوه، كلا. . .

خمسة امتار ما تزال بيني وبين الرجال الثلاثة والطفل، وسمعت نتفاً من صوت الرجل السمين وهو يقول لصديقه دون ان يرفع رأسه عن الطاولة:

ـ ماذا ترى انت؟ الامر كله ينتظر موافقتك. . لقد حركت حجرك خانة اكثر مما يجب، تذكر جهار دو فقط. . .

اجاب الرجل السمينالآخر:

ـ كان خطأ، لم احاول الغش. . رأيي ان الصغير لا يصلح. . على اي حال ـ العب، لا تفكر مطولاً ـ على أي حال، الأمر يعود لك. .

ـ لست أدري، لو كان اكبر سنة أو سنتين، ان هذا المخلوق يغشنا دائماً لأننا طيبو القلب. «شيش يك». . سوف آكل حجرين دفعة واحدة، انتبه. . .

كنت قد حاذيتهما فنظرت الى الطفل، لقد قاسني بعينين واسعتين وهو ماض يمتص اصبعه، ثم مد رأس لسانه بشيء من الخوف ودفع برأسه الى الامام قليلاً وابتسم. . . تباطأت في مشيتي فسمعت الرجل النحيل يقول وهو يدفع الطفل بشدة امام الرجلين:

ـ وماذا يهمكما؟ ثم انكما لم تنظرا اليه جيداً . .

صاروا الآن، جميعاً، وراء ظهري . . لقد خففت سرعتي اكثر، وسمعت احد الرجلين يقول:

ـ لست افهم كيف تقول لا يهمكما وانت لست الا قواداً!

تكتكت قطعتا الزهر العاجيتان وهما تتدحرجان في ساحة الطاولة، ثم ضرب احد الرجلين حجره بقوة ففرقع فوق الخشب الرقيق، بينما ضحك الآخر ضحكة مقطعة صغيرة وبالكاد سمعت صوته:

ـ انا لست ارى انه سيء كما تعتقد انت. . لو فكرت. .

لم اعد اسمع شيئاً الآن، لقد حاولت ان التفت ورائي الا انني لم اشعر بقوة كافية لكي افعل. .

ـ تكسي يا استاذ؟

ـ كلا . . كلا

احسست بيدين قويتين تهزان كتفي فالتفت مذعوراً :

ـ يا اخي حرام . . حرام . . حرام.

نظرت اليه، كان رجلاً مسناً بظهر قليل الانحناء، وكان يلبس نظارة مدورة ذات طوق من الفضة تلتمع وراءها عينان صغيرتان، وكان يرتجف وهو يردد، ويهزني:

ـ حرام.. حرام..

ـ ما هو الحرام هذا؟

اشار بابهامه الى الوراء وقال بصوت مقطع:

ـ الطفل... انه لا يعرف شيئاً... حرام!

تلفت حواليه باضطراب وقلت لنفسي ان هذا الشيخ كان ورائي، ولقد سمع نفسه ما سمعته انا.

عاد فوضع كفيه فوق كتفي وترك عصاه تتأرجح على ذراعه واخذ يهزني:

ـ حرام.. حرام.. ماذا نستطيع ان نفعل؟

ـ لا شيء... انت ترى، انا ضعيف البنية، وانت رجل عجوز... ثم ان هذا كله لن يصلح العالم!

انزل الشيخ كفيه عن كتفي بيأس، ثم اخذ ينظر حواليه:

ـ الطفل.. الطفل.. انه لا يعرف شيئاً.

رددت، كأنما لنفسي:

ـ ثم ان هذا لن يصلح العالم...

ـ تكسي يا سيدي؟

ـ اوه. كلا... كلا..

تابعت طريقي تحت القيظ والغبار والشمس الساطعة التي لا تطاق.. تكسي؟ لماذا؟ أتراه كان قادراً على حملي عبر الأمتار العشرة التي مشيتها الآن؟ تكسي؟ كلا! ان هذا لن يصلح العالم قط!

الكويت ـ ١٩٥٩

المنزلق

سار الاستاذ محسن في الممر الطويل المؤدي الى صفه بخطوات بطيئة مترددة، كانت تلك هي تجربته الاولى في عالم التدريس، ولما كان لا يعرف ماذا يتعين عليه ان يفعل حين يدخل الى الصف فقد حاول جهده ان يبعد تلك اللحظة قدر ما يمكن. . .

في الليلة الماضية تقلب على فراشه حتى الصباح وهو يفكر في الامر: ان من العسير على المرء ان يقف امام الناس. . ولماذا؟ ليعلمهم! ومن انت لتفعل ذلك؟ لقد عشت حياتك البائسة دون ان يعلمك إنسان اي شيء ينفعك، اتعتقد انه بوسعك ان تعلم الناس ما ينفعهم؟ انت نفسك آمنت بأن المدرسة هي آخر مكان يتعلم فيه الرجل الحياة، فما بالك الآن وقد صرت مدرساً فيها؟

في الصباح حملت نفسك الى غرفة المدير، وجلست هناك تستمع الى بقية الاساتذة وهم يناقشون الامر الذي شغلك، ولكن من زاوية اخرى. .

ـ ماذا عسانا نفعل في الصفوف اذا كان الصغار دون كتب؟ واجاب المدير من انفه باختصار:

ـ اي استاذ قدير يعرف كيف يشغل حصته دون كتب!

ثم انكفأ شارحاً بلؤم:

ـ تطلب من احد الاطفال ان يشغل الحصة عنك إذا عجزت. . .

قال الاستاذ محسن لنفسه: «ها هو ذا مدير مدرسة يريد ان يلقن اساتذته درساً بالانتظام والطاعة منذ اللحظة الاول ، لقد قبض الاقساط قبل اسبوع وعليه الآن ان يقبض ارواحنا».

جرع الشاي وقام. .

الممر الطويل مملوء بصخب الاطفال وصياحهم، والاستاذ محسن بخطواته الثقيلة يحس بأنه انما يسير في دوامة تؤدي الى مستقبل قميء مترع بالضجة والسخف. . الضجة والسخف وليس غيرهما!.

ـ لدي قصة جميلة يا استاذ!. .

صاح طفل كان مكوماً على نفسه في آخر مقعد فقدم حلاً ملائماً لذلك الموقف المضطرب. وقبل ان يوافق الاستاذ محسن على الاقتراح كان الطفل قد صار خارج صفوف المقاعد، وواجه رفاقه ببنطال قصير اوسع من حجمه، وقميص ذي قماش نسائي عتيق، وشعر اسود غزير يصل متهدلاً الى حاجبيه. . .

كان والدي رجلاً طيباً. . . كان شعره شائباً، وكانت له عين واحدة اما عينه الاخرى فقد اقتلعها بنفسه حين كان يخيط نعلاً سميكةً لحذاء رجل ضخم، لقد كان مكباً على الحذاء يحاول جاهداً ان يدخل الابرة الكبيرة في النعل، الا ان النعل كانت قاسية جداً، ضغط كل ما في بلا فائدة، ضغط اكثر، لا فائدة، ثم رفع الحذاء الى صدره وضغط بكل قوته فخرجت الابرة فجأة من الناحية الاخرى ودخلت في عينه. .

كان ابي رجلاً طيباً، لم تكن لحيته طويلة، ولكنها لم تكن قصيرة ايضاً، كان يعمل كثيراً، وكان يجيد عمله، وكان لديه دائماً الكثير من الاحذية ليصلحها ويجعلها ملائمة من جديد.

ولكن ابي لم يكن يملك دكاناً صالحة، ولم يساعده اي انسان في عمله، كانت دكانه عبارة عن صندوق من الخشب والصفيح والورق المقوى، ولم تكن تتسع الا له ولعدد من المسامير والاحذية والسندان، وفيما عدا ذلك لم يكن يوجد متسع لذبابة، وكان يتعين على الزبون ان يقف خارج الصندوق اذا اراد ان يصلح حذاءه..

كان الصندوق هذا موضوعاً على منحدر هضبة يعلوها قصر رجل غني، ولم يكن بوسع أي انسان ان يكتشف وجود هذا الصندوق اذا بحث عنه من شرفة قصر الرجل الغني. ذلك ان الحشائش كانت قد نبتت فوق سطحه الترب، ولذلك فان ابي لم يكن يخاف من ان يكتشف صاحب القصر مخبأه فيطرده، صاحب القصر لم يكن ينزل من قصره ابداً، كان الخدم يقومون بايصال كل ما يشتهيه الى قصره، وقد اتفق اولئك مع أبي على ان يكتموا السر عن مخدومهم مقابل ان يصلح لهم احذيتهم مجاناً!

لقد واظب ابي على عمله دون خوف او تردد، وكان الناس يكتشفون انه يستطيع اصلاح الاحذية ببراعة حتى يجعلها تبدو وكأنها جديدة تماماً، ولذلك فان مزيداً من الاحذية كان يأتيه كل يوم، وكان يمضي نهاره، ونصف ليله في عمل متواصل. وكان يقول لأمي: «غداً سيذهب الاولاد الى المدرسة».

وكانت امي تقول له: «اذن سوف تستريح قليلاً من عناء العمل».

عاد الطفل الى مكانه، الا ان رفاقه لم يحركوا ساكناً، فصاح الاستاذ محسن:

- لماذا لم تصفقوا لصديقكم، ألم تعجبكم القصة؟

- نريد ان نعرف بقيتها...

- هل توجد بقية لقصتك؟

قبل شهر او اكثر تكوم عنده عمل كثير فلم يعد بوسعه ان يعود الى البيت، وكانت امي تقول لنا انه يعمل ليل نهار دون ان يخرج من صندوقه. لا وقت عنده للخروج. وكان الرجل الغني يجلس طوال النهار وطول الليل على شرفته يأكل موزاً وبرتقالاً ولوزاً وجوزاً، وكان يلقي بالقشور، عبر سياج شرفة قصره الى منحدر الهضبة، وذات صباح كانت الهضبة قد امتلأت بالقشور، ولم يستطع الخدم ان يجدوا صندوق ابي بين كل تلك القشور. امي تقول انه كان منهمكاً بالعمل الى درجة انه لم ينتبه ابداً الى كل ما كان يلقى فوق صندوقه، كما اعتاد ان يفعل، اغلب الظن انه ما زال جالساً في صندوقه يعمل جاداً في إصلاح ما لديه من الاحذية كي يسلمها في موعدها وحين ينتهي من ذلك سوف يعود الى البيت... ولكنني اعتقد انه مات هناك.

صفق التلاميذ، وعاد الطفل الى مكانه فجلس بهدوء، وعادت العدسات الستون تحدق، براقة لامعة، بالاستاذ محسن..

اقتاد الاستاذ محسن الطفل الى غرفة المدير، وفي الطريق سأله:

ـ هل تعتقد حقاً ان اباك مات؟

ـ ابي لا يموت، لقد قلت ذلك فقط كي انهي القصة، ولو لم افعل ذلك لما انتهت قط، بعد شهور سيأتي الصيف، وسوف تجفف الشمس اكوام القشور حتى يخف ثقلها فيستطيع ابي ان يزيحها من فوقه ويكر عائداً الى الدار.

وصل الاستاذ محسن الى غرفة المدير وقال له:

ـ لدي في الصف طفل عبقري. اعتقد انه رائع، دعه يسمعك قصة ابيه..

ـ ما هي قصة ابيك؟

كانت دكانه صغيرة جداً وكان بارعاً، وذات يوم وصلت شهرته الى صاحب القصر الذي كان يطل فوق دكانه الصغيرة، فأرسل له بكل ما لديه من الاحذية العتيقة ليصلحها ويعيدها جديدة مرة اخرى. لقد اشتغل جميع الخدم في نقل تلك الاحذية الى الدكان الصغيرة لمدة يومين كاملين، وحينما انتهوا من نقلها كان والدي قد اختنق تحت اكوامها، فالدكان الصغيرة لا تتسع لكل تلك الاحذية...

وضع المدير ابهامه في جيب صدارته، وفكر قليلاً ثم قال:

ـ هذا طفل مجنون، يجب ان نرسله الى مدرسة اخرى.

قال الطفل:

ـ ولكنني لست مجنوناً، اذهب الى قصر الرجل الغني وانظر الى احذيته فستجد عليها اطرافاً من لحم ابي، بل ربما تجد عينيه وانفه في

نعل حذاء ما... اذهب الى هناك..

قال المدير:

- انني اعتقد انه طفل مجنون..

اجاب الاستاذ محسن:

- ولكنه ليس مجنوناً، انا نفسي اصلحت حذائي عند والده، وحينما عدت لأصلحه مرة اخرى قالوا لي انه قد مات.

- كيف مات؟

كان يدق نعلاً لحذاء عتيق، ولقد دق يومها كثيراً من المسامير في تلك النعل كي يجعلها متينة تماماً، وحين انتهى من ذلك وجد انه قد دق اصابعه بين الحذاء والسندان، تصور! كان قوياً الى حد كان يستطيع معه ان يثقب السندان الحديدي بمساميره، ولما حاول ان يقوم لم يستطع، كان مثبتاً الى السندان باحكام، ولقد رفض المارة ان يساعدوه، وبقي ملصوقاً هناك الى ان مات...

نظر المدير الى الاستاذ محسن من جديد، كان واقفاً هناك الى جانب الطفل، ملتصقين ببعضهما كأنهما شيء واحد، وهز رأسه مراراً دون ان يقول شيئاً، ثم عاد، فجلس في كرسيه الجلدي الوثير واخذ يراجع اوراقه فيما كان يرمق الاستاذ محسن والطفل بطرفي عينيه بين الفينة والاخرى.

بيروت - ١٩٦١

علبة زجاج واحدة

كنا نعيش كفئران التجارب، في علبة من زجاج نظيف: نأكل جيداً، وننام جيداً.. نذهب الى البحر احياناً فنغسل ضجرنا بالماء والشمس.. ونعود الى علبة الزجاج.. لقد اعطونا كل شيء.. الا المرأة.. وهذه كانت مشكلتنا..

في الشهر الاول صرنا نشتري المجلات الملونة العارية، في الشهر الثاني لم نجد حرجاً يمنعنا من تعليقها في صدور غرفنا.. في الشهر الثالث: مزيداً من الصور، وفي الشهر الرابع مزقناها. كان الاحتمال قد وصل الى حلوقنا، وانسكب من هناك غضباً مروعاً.

بعد عام، اطلقونا من العلب الزجاجية، فسافرنا: كل واحد منا توزع في مكان لا يطاله الآخر، كنا في الحقيقة، نعد العدة لعام اخر من الحرمان، وكان من الضروري ان يذهب كل منا الى مكان مختلف عن المكان الذي يذهب اليه الآخر، كي نعود جميعاً لنلوك قصص مغامراتنا، سنة نعوض فيها حرماناً لا يعرفه الا من عاش في علبة من زجاج..

حينما ذهبنا لنودع صديقاً اسعده حظه فسافر اولاً، قال لنا وهو يلوح بمعطفه: «سوف افتش عن حضن انام فيه شهراً كاملاً. انا تعب!»

نظرنا الى بعضنا، كأنه حكى ما في رؤوسنا، وحينما عدنا في ليلة

امطرت السماء فيها غباراً وضجراً كان، في رؤوسنا جميعاً، حلم واحد: المرأة! هذا الحيوان المجهول.. بدا لنا يومها شيئاً كالظل في ظهيرة صحراء.. ولم ننم ليلتها.. كنا نلوك أملاً واحداً ونحن نعانق عرقنا في الفراش الساخن المرمي فوق السطوح: غداً سنصل اليها.. نرتمي بين ذراعيها.. عيناها بئران لا يتعبان من الارواء.. شفتاها كرزتان في كف بدوي محروق.. نهداها وسادتان محشوتان بأحلام طرية..

- سعيد.. هل نمت؟

- كلا.. انها الى جانبي.. كيف بوسعي ان انام.. هل نمت أنت؟

- كلا.. ما تزال الى جانبي. انا لست غبياً لأنام وأتركها ماذا ستفعل حين تصل؟

- سأضع حقيبتي على باب دارها.. ثم اقرع الجرس..

- اتعرف واحدة بالذات؟

- لست اعرف اية واحدة.. ولكنني اعرفهن جميعاً.. وانت؟

- وانا..

- حينما كنت طفلاً كنت اذهب احياناً الى السينما قبل بدء العرض بساعتين.. وكنت اعتقد ان مدير السينما هو الذي يتعمد تأخير الساعة حتى لا يأتي وقت العرض.. وكنت أكرهه، وأشتمه.. او تدري؟ يخيل الي ان هناك من يتعمد تأخير الصباح..

الصباح! يا إلهي كم تأخر ذلك اليوم، ولكنه اتى.. وسافرنا: حزمنا

حقائبنا، واستوينا في الطائرة، واقلعت بنا. . وحينما حلقنا فوق علب الزجاج راودنا شعور بأننا ضيعنا شبابنا دون ان نعيش. . لم يكن بوسع اي منا ان يحدق الى تحت اكثر مما فعل، كنا نصاب بشيء يشبه الدوار. .

وكنا نحس بشيء يتقطع في صدورنا كلما هدرت الطائرة موغلة في غيوم آب العالية. . وكان التقطع هذا يبعث راحة عجيبة. . كنت اسبح ذات يوم حينما تشابكت ساقاي بحبال من العشب الدقيق الاخضر. . وحينما قذفت نفسي الى فوق، الى الهواء كانت الحبال الكريهة تنزلق فوق ساقي ،ثم تتقطع. . .كنت احس بالراحة. وكانت الطائرة ماضية، فخورة مدوية، تقطع الاعشاب الدقيقة التي امتصت لفترة طويلة بشعة، رحلتنا الى الهواء. .

***

ثم عدنا. .

عدنا الى علب الزجاج قبل ان يأتي ميعاد العودة. .

حينما عدت انا، كنت ناقماً على نفسي : كيف اعود الى علب الزجاج مبكراً؟ لماذا لا اصرف كل ايامي التي مزعنا ليالينا نحلم بها وننام مع خيالها؟ ماذا سيقول اصدقائي حينما اقول لهم انني عدت، قبل ان اهرق كل اجازتي في احضان الحياة هناك حيث الهواء والشمس التي لا تكره الناس؟ كيف؟

ـ سوف لن اقول لهم انني عدت مبكراً. .

الا انني، حينما وصلت علبة الزجاج، كان صديقي هناك. وقال انه عاد قبلي باسبوع. .

وصعت حقيبتي على الارض، واستندت الى الباب. . كتفت ذراعي فوق صدري، ونظرت اليه ملياً، كان جالساً كأنه لم يذهب قط عن طرف سريره، ينظر الى الارض والعرق الكريه ينساح فوق صدغيه ويبلل قميصه على عرض الاكتاف.

مشيت خطوتين كأن العالم لم يكن طوال الشهر الماضي. . كانت الاوراق على الحائط، تحت صورة عارية، تكاد تسقط: «٧ آب». ذلك اليوم الذي غادرنا فيه علب الزجاج. . كأنه ما زال، وكأننا لم نغادر. . درت على عقبي، وفي لحظة واحدة سأل كلانا نفس السؤال:

- حسناً. . ولكن لماذا؟ لماذا؟

- ١ -

قال لي صبي الفندق، وهو شاب نحيل له وجنتان بارزتان كصخرتين حادتين:

- ماذا؟ تقيم هنا اسبوعاً، ولا تعرف ما معنى كلمة كلاجية؟

وكان الصبي مدهوشاً للغاية، وضع كوب الماء فوق الطاولة الخشبية وهو يحدق الي كأنني شيء عجيب، ثم اخذ يمسح اصابعه بثوبه الابيض المتسخ واقترب خطوتين. . .

- وما معنى هذه الكلمة؟

قلتها ببرود، ومضيت اتلهى بمجلة احملها. . بينما عاد الصبي فاقترب خطوة أخرى:

- تقيم هنا اسبوعاً. . ولا تعرف معناها؟

رفعت رأسي، ونظرت اليه. . . كان من ذلك النوع الذي يترك شفتيه مفتوحتين حينما ينتهي من قول شيء ما، فيبدو كأنه لم ينته بعد، وانه على وشك ان يكمل. وكانت عيناه صغيرتين غائرتين. . ولاحظت انهما لمعتا فجأة. . كأنما سقطت فكرة ما إليهما واقترب مني خطوة اخرى:

ـ لماذا لا تذهب الى هناك؟ ها؟ لماذا لا تذهب؟.

ـ اذهب الى هناك؟

ـ نعم . .

وواصل هز رأسه، كأنما نسي ان يتوقف، بينما قذفت المجلة وقلت:

ـ يقولون انه مكان قذر. .

ـ قذر؟ قذر؟ يا سلام! وماذا يهمك انت؟ اذهب تفرج. . تفرج. . ان نصف حياتك فرجة على الناس، ونصفها الآخر فرجة الناس عليك. . لقد قال لي هذا الكلام رجل ما برح، منذ ولد، يطوف في العالم على دراجة. .

وفي الواقع انني لم اكن احتاج لتشجيع الغلام السليط كي اذهب الى هناك. . وهكذا توجهت الى الكلاجية فور ان هبطت العتمة. . كنت وحيداً، ولقد عبرت الازقة الرطبة ذات الجدران الخضراء المقشورة والشبابيك الخشبية الواطئة، وكان صوت خطواتي يتردد في أذني كأنه صوت خطوات رجل آخر يتبعني. وحينما انتهى الزقاق انفتحت امام بصري ساحة واسعة اقيمت في صدرها بوابة من خشب. . لقد توجهت الى البوابة بخطوات ثابتة. ما من احد يعرفني في هذا البلد، وفور ان

عبرتها تفجرت في اذني اصوات ماجنة متشابكة. . وكان الناس رجالاً ونساء، يتماوجون كأنهم طوفان. .

انه عالم فاوست! هكذا قلت لنفسي وانا احاول ان اشدها الى شيء ثابت وقيم. . لقد بدا لي كل شيء رخيصاً للغاية. . وكنت خائفاً من الضياع. . ها هو ذا عالم فاوست! الشياطين والسحرة اتوا من انحاء العالم وزواياه ليتجمعوا هنا. . وهأنذا في صميم الضجيج. عاهرات طلين وجوههن بمساحيق شيطانية. وانتزعن ملابسهن الا اقلها، فبدون من عالم آخر: بشعات، مترهلات، قذرات يتدفقن بالشتائم والعهر. . تعتبن ابواب غرفهن، ومضين يستدعين العبور كاشفات عن سيقانهن الزرقاء، مبرزات نهوداً ترهلت من فرط ما عبر فوقها الرجال. . . وبعض آخر منهن تعرض الطريق يشتم الله والشرطة، ويتمسكن بالعبور ليكتشفن رجلاً سكراناً يسهل جره الى غرفة الرجس. . وكان القوادون يرابطون في زوايا مظلمة بانتظار شجار يحدث دائماً. . . او بانتظار رجل يدفع اكثر، ليخدموه او يدفع اقل ليضربوه. . ووراء الشبابيك كانت تجلس نسوة سمينات ينتظرن الموت، او المستشفى. يتحدثن عن الماضي دائماً. . ويتسولن ضريبة قوادة بكبرياء حتى لا يمتن من الجوع. .

مشيت في ذلك العالم كانسان خرج من عالمه المألوف. . لقد اعترضتني بادىء الأمر بدوية خرزت وجهها بوشم قبيح، كانت سمراء محروقة، وكان لها سن من ذهب، استوقفتني ثم مدت يدها الى ثديها وقالت:

ـ انا لست كالأخريات.

حينما حاولت ان ابتعد، دفعتني فسقطت في احضان امرأة سمينة اخذت تعض اذني، وكانت البدوية قد اتكأت على حائط قريب واخذت تضحك بعهر وعنف. . لقد بذلت جهداً كبيراً لأتخلص. . ثم لأبتعد. .

***

كيف صادفتها؟ لست أذكر الآن، حتى اسمها الذي كررته على مسمعي الف مرة لم أعد أذكره. . وما الاهمية من كل ذلك؟ لقد رأيتها فجأة، كأنما سقطت من فوق، او انبثقت من تحت. . كان وجهها بشعاً منتفخاً، لقد اعترضتني، ومدت كفها مبسوطة تجاهي، وامالت رأسها فوق كتفها. . كانت تتسول. . ولما حاولت ان اجتازها تحركت ببطء وسدت علي ذلك الجانب المظلم من الزقاق. . ومدت كفها اكثر إلي. . .

ـ لماذا لا تشتغلين كالبقية. .؟

سألتها، كأنما لم يكن بوسعي ان احركها من مكانها واجتازها، كانت واقفة هناك، وكان كفها في حلقي. .

ـ اشتغل؟ ها. . ها. . كيف؟

اسقطت يدها برخاوة، وطأطأت رأسها. . . ثم أشارت الى بطنها: كانت حبلى.

لست ادري كيف تحرك لساني، ولكنني لم اكن استطيع ايقافه. . . وسمعت صوتي كأنه صوت انسان آخر:

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ حدث! حدث! لست ادري.. عمره الآن ستة شهور كما اعتقد..

ـ من هو ابوه..؟

دورت جسدها برخاوة دون ان تحرك قدميها، وكانت ذراعها تشير باعياء حولها.. حيث كان الضجيج الاهوج لمئات من الرجال الجياع يدوي حولنا بهياج وشبق.. وعبر تلك الاصوات المطبقة حولنا، وصلني جوابها المتعب واهناً:

ـ ابوه؟ ها! انه هؤلاء..

لا شك انها ضحكت.. اذ انني شممت رائحة عرق مفاجئة ملأت انفي... لست ادري، أكانت هذه الرائحة القوية لذلك النوع الكريه من العرق.. هي التي بعثت الدوار الى رأسي.. ام ذلك الضجيج المدوي بصخب وراء عنقي.. ولكن حلقي، على اي حال، كان ما زال مجروحاً بكفها الممدودة، فأخذت اهذي:

ـ انت إذن لا تشتغلين الآن؟..

ـ اشتغل؟

وضحكت مرة أخرى، ثم هزتني من كتفي بكفيها الرقيقتين:

ـ كيف؟ انهم لا يحبون مضاجعة اثنين دفعة واحدة..

رفعت رأسها فجأة بعنف وحدقت مباشرة في عيني.. اي شيطان جعلها تحسب انني لم اصدقها؟

ـ انت لا تصدق! ها! انتم الرجال كلكم لا تصدقون. انت تحسب انني اضع وسادة.. سوف اجعلك تصدق.. ها..

وانحنت، فرفعت ثوبها الطويل.. وكشفت عن بطن متهدل منفوخ.. كان الثوب قد وصل الى اسفل ثدييها وكانت تلهث كأنها موشكة على البكاء:

ـ هل صدقت.. ها.. انتم لا تصدقون.. ماذا ترى؟ وسادة؟

تكوم حولنا عدد من السكارى، واخذوا ينظرون الى المشهد ويتضاحكون، اتكأ رجل ذو لحية صغيرة على كتفي ووضع ذقنه فوق ذراعه، وصاح بصوت ثاقب:

ـ سوف تضعين سبعة جراء صغيرة.. كالقطط..

انفجر الجمع ضاحكاً، واستجلب الضحك عدداً آخر من الرجال، بينما اخذت هي تدور حول نفسها رافعة ثوبها الى أقصى ما تستطيع، ناظرة بعينين زجاجيتين الى الجمع..

ـ بطنك يصلح قبة لمجلس نواب...

ـ انا اراهن ان داخل هذا البطن تختبىء عاهرة اخرى.

وكانت الأصوات قد بدأت تتشابك وعبثاً كنت احاول ان امضي، لم يكن بوسعي ان اتحرك، وكنت اسمع بين الفينة والأخرى صوتها الواهن يأتي عبر الضحكات المسعورة الماجنة:

ـ انتم لا تصدقون.. تعتقدون انها وسادة..

بدأت انسحب مزاحماً الاكتاف المبتلة بعرق ذي رائحة كريهة، وكانت رائحة الجمع تشبه رائحة حيوان في بركة من وحل. . وحينما اوشكت ان انفلت سمعت صوتاً لرجل كان يقف في الناحية المقابلة. .

- حسناً. . لقد رأينا بطنك. . دعينا نرى ثدييك. .

اخذت اعدو وانا اشد اصابعي على رزمة نقود في جيبي. . لست ادري كيف وصلت الى البوابة الخشبية وكانت الأصوات المجنونة تلاحقني كسيل حطمت حواجزه، وكنت خائفاً أن يبتلعني السيل. .

يا صديقي! تقول علبة زجاج؟ ماذا تعرف عن علب الزجاج؟

- ٢ -

أول مكان ذهبت اليه بعد وصول الطائرة. . كان ذلك المكان الذي حلمنا ان نشاهد فيه اللحم والحب والاكتفاء. . .

وكان المكان اشبه ما يكون بقطعة من جهنم، فلتت، فصارت فوق. .

لقد مشيت في تلك الأزقة المعتمة وانا احس قلبي وهو ينبض بعنف واكاد اسمع صوته يصم اذني. .

كان الرجال قد تلثموا بكوفياتهم خوف ان يعرف بعضهم بعضاً، وكانوا يمشون حذاء الجدران، ويتهامسون كأنهم فقدوا القدرة على رفع اصواتهم. . . وحينما كانت تمر سيارة ما، كان الرجال يشيحون بوجوههم خوف ان يفضحهم الضوء، وكنت ألاحظ ان اصحاب تلك السيارات تعمدوا ان يربطوا ارقام سياراتهم بقطعة من قماش كي لا

يعرف الآخرون صاحب السيارة..

انه شيء لا يحتاج الى حساسية خارقة، ان يكتشف المرء بأن شعوراً عاماً بالخجل كان يسيطر على الجميع.. ولكنني ـ انا بالذات ـ لم اكن ابالي بأي شيء.. لم اكن خجلاً ابداً... ولماذا اشعر بالخجل؟ انا الذي تغسلت بالحرمان الممض طوال شهور وشهور؟ لقد تعلمت، في غمرة ذلك الحرمان القاتل، كم هو ضروري ان لا يخجل الانسان، فأمام الاختيارين يجب ان لا نتردد.. الشيء الوحيد الذي كان يزعجني ساعتها، هو ان ما جمعته من نقود لم يكن بوسعه ان يأخذني الى مكان افضل، او ابعد، وهكذا فأنا لم ابتعد كثيراً، لقد ذهبت الى مكان قريب... وهو مكان كريه على كل حال...

قالوا لي مرة ان العاهرات الموجودات في هذا المكان لسن، في الحقيقة، إلا زوجات مهذبات دفعتهن الشفقة على طوابير المحرومين الى تخصيص جزء من لياليهن لهم.. فاذا كان هذا القول مبالغاً فيه، فإن الشيء المعقول هو ان كل تلك النسوة لم يكن محترفات بالمعنى البذيء للكلمة..

ولكنني لا بد ان اعترف بأن اندفاعتي اصابها شيء من التردد بعد ان تجولت ساعة في ذلك المكان.. ربما كانت المناظر هي السبب، ربما كان الخوف.. لست ادري الآن، فطوال تجوالي في ذلك الحي لم أرَ امرأة قط.. كن جالسات داخل بيوتهن، وكان الرجال يصطفون طوابير امام الأبواب الخشبية الواطئة، كل منهم ينتظر دوره... بينما انحنى الرجل الذي اسعده الحظ فكان على رأس الطابور، يراقب من ثقب المفتاح ما يجري في تلك الغرفة.

كيف كانت الغرفة تلك؟ قال لي صديق مرة انه دخل الى غرفة منها، وهي غرفة صغيرة ذات سقف من قش وحطب ارضها ترابية فيها بحيرات صغيرة من الماء، وفي الزاوية كان ينطرح فراش قميء فوق التراب وقد تهدل صوفه لاهثاً من ثقوب احدثتها الفئران بلا شك، والى جانب الفراش يوجد ابريق من الماء وكرسي صغير. .

تجولت طويلاً، كنت قد وصلت الى قرار فيه شيء من المعقول: اذا صدف ان عثرت على باب خشبي واطئ، ولا يوجد امامه اي انسان، فلسوف ادخل، اما اذا لم اجد فأنا في غنى عن كل ذلك. . .

لم يكن ثمة ما يدفعني الى القرف تماماً. . فالحي كان هادئاً، ومرور السيارات الملثمة كان نادراً. . مهما يكن لقد واصلت المسير. كنت وحيداً وكان هذا افضل من ان اكون مع صديق يثرثر بلا انقطاع. .

ولقد حدث الأمر كله بهدوء. رأيت باباً خشبياً صغيراً، وكان الضوء يلتمع عبر شقوقه، ولم يكن يوجد أي انسان في كل المدى الذي استطعت ان اتبينه حولي. . اقتربت من الباب وسمعت همساً خيل الي انه ينبعث من الداخل. لقد مددت يدي ـ اذكر كل التفاصيل بوضوح ـ وكنت على وشك ان اقرع الباب لولا ان قرأت ثلاث كلمات مكتوبة على خشب الباب بشيء يشبه الكلس الأبيض، كان الخط عريضاً ومشرشراً. . ولقد بقيت يدي مرفوعة الى فوق، وانا اقرأ مرتين وثلاث مرات، وعشر، تلك الكلمات العريضة: «هنا بيت عمال». .

خيل الي للوهلة الاولى ان هناك خطأ ما. . ولكن الأمر كان واضحاً بصفاقة، وكانت الكلمات، كما لا تزال حتى الآن؛ محفورة في عظام

جبيني . .

لقد استطعت ان اتصور وانا واقف هناك رافعاً يدي الى فوق كم تعذب اولئك العمال المجهولون وهم يبحثون عن بيت رخيص في تلك المدينة العمياء . . لقد بحثوا طويلاً . ثم استقروا هنا : كان البيت قذراً وصغيراً وفي حي العاهرات، ولكن هذا كان آخر ما يستطيعون ايجاده . . لقد قبلوه . . إلا ان الرجال الملفوفين بخجلهم وشبقهم كانوا يقرعون الباب الصغير الف مرة كل ليلة بحثاً عن امرأة . . وكان العمال غير قادرين على الاستراحة . .

انزلت ذراعي برخاوة، ومشيت بطيئاً في الزقاق الكئيب ذاهباً الى المدينة . . كيف فكر اولئك الرجال بكتابة تلك الكلمات ببساطة؟ من منهم كتبها؟ كيف فعل؟ تراهم فكروا كثيراً؟ تراهم ترددوا؟ كيف بزغت تلك الجملة ببساطة؟

جررت ساقي موهناً في شوارع المدينة، وكنت احس العار يزحف داخل عظامي . . بدت لي الحياة كلها حقيرة، واضيق من ان تتسع للانسان ولجوعه معاً . .

يا صديقي . . تقول علب زجاج؟ انها علبة زجاج واحدة كبيرة . . نحن نتحرك داخلها، ولكننا لا نغادر . . نحن ننتقل من طابق الى آخر، ولكننا لا نغادر . .

الكويت ـ ١٩٥٩

عطشى الافعى

هي التي اندفعت نحوه، أما هو فقد كان واقفاً لا يتحرك، وحدث الأمر بسرعة، وحينما سمع الزعيق التفت فجأة، وشاهد مقدمة سيارة سوداء وعجلة كبيرة، كل الذي عرفه ان السيارة كانت هي نفسها، السيارة ذاتها. وحينما شاهد غيمة بنفسجية تقترب منه اقتراباً شديداً احس بالخدر يملأ اطرافه، ثقيلاً كالرصاص، مترجرجاً كالزيت. واخذ الناس يدورون حوله، كانوا خرساً كلهم، وكان بوسعه ان يراهم يسبحون حوله كأنهم في حوض ماء زجاجي، وكان مضطجعاً فوق حجر مسنن يدخل في خاصرته فانقلب الى جنبه، وكانت نقاط من الزيت الاسود تزحف ببطء فوق الاسفلت وتقترب من بقعة حمراء لامعة ممدودة حتى وجنته.

كان يحس ان الحجر المسنن المغروس في خاصرته ما زال هناك، كان يتألم، ولكن الخدر اللذيذ الذي كان يغسل جسده من الداخل كان ممتعاً الى حد هائل.. وود لو ان هذه الأشباح الخرساء تتركه، تبتعد عنه، ويبقى هو مضطجعاً في مكانه الحار، ويراقب اللسان الأسود وهو يزحف كأفعى صغيرة نحو البحيرة الحمراء..

ـ حاول أن يعبر الشارع، فصدمته السيارة!

ليس يدري متى سمع هذه الجملة لأول مرة. ولكنها صارت تطن

في رأسه كل دقيقة. . انه يعرف الصوت جيداً. . . ربما يكون صوت ابيه، ليس يدري، ولكن الذي يدريه انه لم يسمع، طوال ساعات وساعات، غير هذه الجملة. . ترى، هل هذا الصوت هو صوت أبيه؟ انه لا يستطيع ان يتبين شيئاً، بل كاد ينسى كيف كان صوته. ترى، لو عرف ابوه انها سيارة. . لو عرف. . ماذا سيفعل؟ من المؤكد ان هذا الصوت ليس صوت ابيه؛ اذ لو كان ابوه حاضراً لما جلس هناك يقول: «صدمته سيارة. .»

كان ما زال مستمتعاً بالخدر اللذيذ وهو يطوف حاراً داخل جسده، ورغم انه كان يستشعر لمس اياد كثيرة تحمله وتجسه وتضغط انحاء جسده، الا ان ذلك لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لسعادة الخدر.

- هل تستطيع ان تعد اصابعي؟

وصله الصوت كأنه من قطن. . وكانت اذناه ترتجان بنعومة وهما تمسكان بالصوت، وتلوحان به، ثم تلقيانه الى مؤخرة رأسه. . . انه ليس صوت ابيه، هذا شيء مؤكد، انه صوت من قطن. . حينما يتكلم ابوه كان يتكلم بصوت من نحاس، صوت عال يرج سقف بيتهم القديم. . وكانت امه تقول لأبيه دائماً:

- لو كانت همتك عالية كصوتك، إذن لكنا بألف خير. .

صوت ابيه. . كيف قال لنفسه مرة انه يوشك ان ينساه؟. هل يمكن ان ينساه؟ او لم يسمعه سنوات وسنوات وهو يسير الى جانبه في تلك الأزقة المرصوفة بأحجار ملساء مقوسة؟. ماذا كان يقول ايامها؟ لا يذكر الآن. . سوف يذكر فيما بعد، اما الآن فثمة سعادة الخدر التي تطوف بثقل لذيذ داخل عروقه الصغيرة.

ـ «اذا كنت تستطيع رؤية أصابعي فقل لي كم عددها. . واذا كنت لا تراها فقل لي ذلك هل تسمعني؟». . .

نعم، انه يسمعه،. . لقد كان يسمع صوت ابيه دائماً من الغرفة المجاورة يقول لأمه:

ـ سوف يزفون ليلى الى عبد الهادي. . . الا تعرفين عبد الهادي؟ انه ابن المرحوم حسن الذي كان يسكن فوق البقال. . .

وكانت امه تجيب، فيما هي جالسة امام صحن الرز، تلتقط منه الحصى:

ـ ومتى العرس؟. .

ويأتي الصوت النحاسي من الغرفة المجاورة:

ـ الليلة!.

وكان هو ينتظر هذه الكلمة. . . الليلة! اية كلمة جميلة رائعة. . عندما كان يسمعها كان يقوم لتوه، ويتسلق السلم الى العلية، وكان دائماً يجد الخيزرانة الطويلة بسرعة، ذلك ان الخيزرانة لا يمكن ان تضيع في العلية. . ولكنه، دائماً كان يفشل في العثور على الطبلة الصغيرة. . وكان يصيح، من فوق:

ـ اين وضعتم الطبلة؟ انها ليست هنا!.

وكان يأتيه الصوت من ابيه الحانق:

ـ انزل ايها العفريت، انزل. . متى سوف تتعلم ان الطبلة توضع في باحة الدار. . وليس في العلية؟ الف مرة علمناك ولكنك لم تتعلم!. .

وفيما كان يهبط السلم، كان يتذكر ان اباه قال له مرة ان الطبلة يجب ان لا توضع في مكان رطب بل يجب ان توضع حيث تطالها اشعة الشمس، فذلك كفيل بابقاء جلد الطبلة مشدوداً كفاية.

- «يا ولد! يا عزيزي! فقط قل لي، هل تستطيع ان ترى يدي هذه؟»

كانت يد ابيه خشنة مبسوطة عريضة، وكانت عروقها نافرة زرقاء تنبض دائماً... كان يمسك الطبلة، ويقلبها بين كفيه، ثم ينقر عليها بسبابته، وكان هو يتربع امامه، ويراقبه دون ان يفلت لحظة واحدة، كيف كان يلبس الشروال المطرز من طرفيه، تحت الجيبين مباشرة، وكيف كان يشد صدارته اللامعة المقلمة ذات الأزرار الصغيرة السوداء المرصوفة واحداً اثر الآخر. ثم كيف كان يلف الحزام الاسود الطويل وكيف كان يعقد طرفه دون ان تظهر العقدة... عندها فقط، كان يقوم اليه ويسأله:

- «هل استطيع ان اصحبك الليلة يا ابي؟.»

وكان ابوه يجيبه دون ان ينظر اليه:

- «نعم.. يجب ان تأتي معي... ولكن يجب ان تتعلم لا ان تتفرج..»

ثم كان يلتفت اليه، ويركع امامه ليمسكه من ذراعيه الصغيرتين:

- قل لي.. لو مت انا غداً... فممن سوف تتعلم هذه الصنعة؟ ماذا سوف تشتغل؟ افتح عينيك جيداً هذه الليلة، وراقبني كيف اشتغل.. يجب ان تتعلم! يجب ان تتعلم!

ولكنه لم يتعلم قط. لقد شاهد اباه اكثر من الف مرة يمشي في مقدمة

الزفة. بل كان يمشي الى جانبه تماماً، وكان ينظر الى يديه وخطواته، ولكنه لم يكن ليستطيع ان يتعلم قط. . . كان العمل في غاية الصعوبة، وكان لا يستطيع ان يتصور كيف يمكن ان يجيده في يوم ما. . هل سيكون بوسعه ان يضرب هذه الضربات السريعة المحكمة فوق الطبلة الصغيرة بهذه الاجادة؟ لم يستطع قط ان يلاحق بعينيه كف ابيه وهي تدور الطبلة من خلف ظهره، ثم بين ساقيه، ثم من وراء عنقه، في نفس الوقت الذي لا تكف الخيزرانة عن قرع الطبلة تلك القرعات المذهلة، ودون ان يكف والده عن الغناء ودون ان يرتج صوته في ذلك الرقص السريع العجيب. .

ـ «نريد ان نعالجك يا بني. . لماذا لا تجيب على اسئلتي؟. أنا لا اريد ان اؤذيك. . هل تستطيع ان ترى يدي. . هز رأسك فقط. . لا تتكلم. فقط هز رأسك. هل تراها؟. »

ولكنه لم يتعلم قط! كم مرة حاول ان يقوم بتلك الحركات امام والده. . وكم مرة فشل وكان على وشك ان يبكي! مرة حاول ان يدور الطبلة خلف ظهره، ولكنها سقطت من يده، ودون ان يلتقطها، هرب الى الغرفة المجاورة واخذ ينتحب ثم سمع صوت ابيه:

ـ لا بد ان يكون هذا الولد غبياً! لقد كانت صنعة ابيه، وصنعة جده، وصنعة جد جده، . . . فكيف يمكن ان يكون غبياً الى هذا الحد؟ لقد صرت عجوزاً على وشك الموت. . . وابنك هذا لم يتعلم بعد كيف لا يسقط الطبلة من يده!

ولكنه رغم كل هذا، كان سعيداً للغاية، كان ينظر الى يدي ابيه وهما تعملان في كل عرس فيتصور ان هذا كله ضرب من السحر. . وانه

شيء من الاعجاز. . وكان فخوراً في الحي الذي يسكنه بأنه ابن ذلك الرجل الذي يحتاجونه في كل عرس، والذي يتكوم حوله شباب الزفة حينما يأخذون العريس الى بيت العروس، يصفقون، ويشاركونه الغناء، ويثنون على براعته في ضرب الطبلة بالخيزرانة من خلف ظهره، ووراء عنقه، وبين ساقيه، وكيف ان الخيزرانة لا تخطىء الطبلة مرة واحدة، وكيف ان هذه الضربة لا تتأخر لحظة واحدة!

- «حاولي ان تفهميه انت. . . لدي الف مريض يجب مشاهدتهم، ليس هو المخلوق الوحيد في المستشفى!»

واحس بيد ناعمة تمسح على جبينه، وأتاه صوت امرأة، ولكنه ما زال صوتاً ملفوفاً بالقطن:

- «لماذا لا تريد ان تقول لنا ماذا تشاهد؟ هل تستطيع رؤ ية وجهي؟»

ليس يدري متى حدث ذلك ولكنه سمع أباه يقول لأمه، في الغرفة المجاورة:

- «قالوا ان السيارات افضل. . تصوري! منذ ان تزوج عبد المحسن، قبل خمسة شهور، حتى اليوم، وهم يقولون كل يوم في المقهى ان السيارات افضل من الزفة. . هل تسمعين السيارات كيف تنعق كالضفادع وهي محملة بالبشر كالسردين؟ انه عار! عار كبير! تصوري! يتزوجون بلا زفة، كأنهم يخجلون من الزواج. . اليوم قال لي صاحب المقهى ان علي ان افتش عن عمل آخر. .»

احس هو، يومها، في الغرفة المجاورة بأن شيئاً سيئاً للغاية قد حدث. . فقام من فراشه، واتجه الى الباب، ثم شاهد اباه يجلس متربعاً

فوق الحصير، وكانت امه تمسح جلد الطبلة بالزيت، ثم سمعه مرة أخرى:

- «كنت اعتقد ان الاحياء الاخرى قد كفت عن استدعائي للاعراس بسبب منافس آخر.. السيارات!، يا سلام! تصوري العريس في السيارة كأنه يختبىء من الناس، هذا عيب، هذه فرحة العمر. السيارات... بيب.. بيب.. بيب.. ثم ينتهي العرس!»

وعاد الى فراشه بهدوء، وبقي كل الليل يحلم بالسيارات التي تحمل العريس والعروس دون طبل ودون خيزرانة..

- «اسمع! سوف نلقي بك الى الشارع اذا لم تتكلم.. انه ولد لعين صدقوني، يفتح عينيه مثل قط، ثم ينظر الينا ولا يقول شيئاً.. من هو أبوك؟»

أبوه؟ خرج ذات يوم ولم يعد... جارنا النجار محمد علي زوج ولده ولقد حضر والده الطبلة منذ الصباح، وعند العصر، قال لأمه ان النجار محمد علي لم يدعه الى العرس.. وعند المساء وصلت السيارات.. وحينما سمع والده زعيق ابواقها ورآها كبيرة تلمع كأنها مدهونة بالزيت، خرج الى الشارع، وحاول هو ان يتبع اباه، إلا ان امه منعته، لقد سمعا جلبة هناك، ثم علا الصياح وكانت امه تحدق من خصاص النافذة وتحول دونه ودون الوصول الى الشباك ليرى، هو الآخر، ما الذي يحدث. ثم تسلل الى الباب، وشقه بهدوء كي لا تسمع امه الصوت، وحينما مد رأسه شاهد مقدمة لامعة لسيارة سوداء وعجلة كبيرة، كانت واقفة امام الباب مباشرة، ولما حاول ان يمد رأسه اكثر شاهد حجراً كبيراً يهوي فوق زجاج السيارة، واشتد الصياح

لو كنت حصاناً

ـ «لو كنت حصاناً لأطلقت رصاصة في دماغك!».

لماذا حصان؟ لم لا يكون كلباً، او قطة، أو جرذاً، او أي شيء آخر اذا كان من الضروري ان يكون حيواناً ليجوز اطلاق الرصاص في دماغه؟

منذ بدأ يعي معنى الكلمات ـ لا يذكر متى بالضبط ـ وهو يسمع هذه الجملة من بين اسنان ابيه. لقد كان غريباً حقاً ان أباه كان الانسان الوحيد في العالم الذي سمعه يتمنى لابنه ان يكون حصاناً، وحصاناً فقط. أما الشيء الأكثر غرابة فهو ان اباه لم يكن يتمنى لأي انسان آخر، مهما بلغ خلافه معه وغضبه عليه، ان يكون حصاناً!

حسب، بادىء الأمر، ان أباه يكره الخيل، يكرهها اكثر من اي شيء آخر في العالم كله، وانه لا يقول لأحد من الناس: «لو كنت حصاناً لقوستك» إلا حين يبلغ به الغضب كل مداه. وكان يحسب، بادىء الأمر ايضاً، ان أباه لا يكره انساناً في العالم كما يكرهه هو، ولذلك بالذات لا يقول ابوه لأي انسان عداه: «لو كنت حصاناً لقوستك».

ولكن الأيام ما لبثت ان جعلته يستبعد هذا الاعتقاد السخيف كلية. ذلك انه اكتشف ان اباه يحب الخيل، وانه كان في يوم مضى ذا خبرة

واسعة في هذا المجال، وانه لم يهجر الخيل إلا لما هجر الريف.

في مرة واحدة فقط كان ابوه، على غير العادة، مرحاً بشوشاً، فانتهز هو الفرصة واندفع قائلاً: «لماذا تتمنى ان اكون حصاناً حينما تشتد بك رغبة التخلص مني؟.»

فقطب ابوه حاجبيه فجأة، وأجاب بصوت رصين: «انت لا تفهم هذه الامور. هنالك حالات يصبح قتل الحصان فيها عملاً ضرورياً ومفيداً».

- «ولكنني لست حصاناً!».

- «اعرف.. اعرف. لهذا اتمنى احياناً لو خلقك الله حصاناً».

قال أبوه ذلك ثم دور كتفيه العريضتين ومضى. ولكنه خطا واعترض طريقه، فوقف، ونظر أبوه اليه بامعان وقاسه بعينيه الحادتين. وحاول هوعبثاً ان يعرف ما يجول في خاطر ابيه:

- اتكرهنى الى هذا الحد؟

- انا لا أكرهك.

- اذن ماذا؟

- اخاف منك.

وساد صمت قصير خلى بعده بين ابيه وبين الطريق. وحينما كان الأب يدور حول حنية السلم العريض أحس هو كم يحب والده، ذلك الشيخ المسكين الذي عاش معظم حياته وحيداً متوحداً. لقد شغل صباه بالخيل، ولكنه ما لبث ان هجر كل شيء فجأة. كانت زوجته قد

ماتت بعد ان وضعت له ابناً حمله معه الى المدينة. باع كل خيوله وكل المروج التي كان يطلق فيها العنان لها ـ خيوله «سمرة» و«بيضا» و«برق» و«سبع». لماذا فعل أبوه ذلك؟ ما خطر له يوماً ان يسأله، ولو فعل لما فاز بالجواب.

إنه يعرف أباه تماماً، ويعرف ان الماضي بالنسبة له صندوق من الخشب السميك، اغلق بألف قفل، ثم القيت المفاتيح في عتمة المحيط.

شغلته القصة مرة، فقرر ان يكشف عن خباياها في اول فرصة.

وذهب والده الى الريف ليزور من تبقى هناك من الصحب والأهل، فصعد الى غرفته التي لم يطرقها إلا قليلاً. ولأول مرة انتبه الى وجود ذلك العدد الكبير من الصور التي تزين الجدران ـ صور خيول جميلة حقاً. وأدخل سكيناً في مفصلة الدرج وفتحه، ثم سحب دفتراً ذا غلاف جلدي اسود وغاص في المقعد.

كانت خيبة الأمل كبيرة. ليس ثمة في الكتاب ما يفيد، كله ارقام واثمان واسماء انساب. اثمان خيل اشتريت وبيعت، وانساب خيل تمتد الى مئة ومئات من الأعوام. فقط جمل مقطعة مكتوبة في حواشي الدفتر بلا اهتمام، كأنها شرود انسان حالم.

«٢٠ ـ ٤ ـ ١٩٢٩ ـ قالوا لي ان ابيعه او ان اقتله.»

وقلب الصفحات باهتمام. فقد خيل اليه انه قد امسك بطرف الخيط، وكان يخاف ان يفقده.

«١ ـ ١٢ ـ ١٩٢٩ ـ انه احسن ما عندي، ولن افرط به. ما زالوا ينصحونني بأن اقتله او ان ابيعه.»

«٢٠ ـ ٣ ـ ١٩٣٠ ـ هذه خرافات مزعجة. «برق» هو اروع حصان شهدته في حياتي وأهدأ حصان سمعت عنه. لن اقتله!»

وفي الصفحة الأخيرة كانت يد مرتعشة قد خطت الجملة الأخيرة في تلك اليوميات العجيبة:

«٢٨ ـ ٧ ـ ١٩٣٠ ـ ألقاها عن ظهره بوحشية على شاطىء النهر ثم حطم جمجمتها بحوافره وبقي يدفعها بقائمتيه الأماميتين حتى اسقطها في النهر. اطلق ابو محمد الرصاص في دماغه.»

***

قال ابو محمد: «الحصان كان يجب ان يقتل عندما ولد.. وفي نفس اللحظة التي سقط فيها على القش. ان قتل الحصان بعد ذلك يصبح امراً صعباً للغاية. الحصان حينما يعيش معك سنة وسنتين وثلاث سنين يصبح اخاً، واكثر من اخ. هل يقتل الانسان اخاه؟ ابوك، سامحه الله، لم يقبل، وقال انه اجمل حصان رآه. قلنا: «دائماً يكون هذا النوع جميلاً للغاية. ولكن هذا يجب ان لا يغش». قال: «ولكنه حصان اصيل!» قلنا: «سوف يجعلك تخسر اكثر من ثمنه».. ابوك، سامحه الله، رجل عنيد. لم يقتل الحصان ولم يبعه ولم يتخلص منه. قلنا له: «يا ابا ابراهيم، على الاقل لا تعتل صهوته.» ولكنه، سامحه الله، لم يسمع!

«انت لا تذكر امك. كانت امرأة جميلة ومحبوبة، وكان ابوك، سهل الله له، يحبها حباً مجنوناً. لم نرَ في كل هذا المرج من احب زوجته مثلما

احب ابوك. لقد كانت هي، رحمها الله، على شيء كثير من الجمال والفطنة، عاش معها على ما اذكر سنة واحدة وضعتك في اواخرها قبل ان يطوح بها الحصان على حافة ذلك النهر.

«تسأل لماذا كنا نريد ان نقتل الحصان؟ هذا سؤال صعب يا بني! هذا سؤال لا يستطيع ان يجيب عليه الا ذوو الخبرة والمعرفة، ولا يستطيع ان يفهم الجواب الا ذوو الخبرة والمعرفة. انا رجل عجوز، لماذا لا تسأل غيري؟

«ابوك لا يكرهك ـ ابوك يخاف منك ـ منذ كنت طفلاً لا تقوى بعد على حمل حجر صغير كان ابوك يخاف منك ـ ولو كنت مكانك لما سألته لماذا.»

***

لماذا يخاف منه أبوه؟ لماذا أبوه فقط؟ كل رفاقه في المستشفى يعرفونه انساناً مسالماً وديعاً. لم يقتل في كل عمره بقة واحدة. لماذا لا يخاف منه أي انسان سوى والده؟ لماذا لم يخف منه اي من المرضى الذين استسلموا لمبضعه وهم في غاية الطمأنينة؟ ان وجهه لا يحمل اي تعبير يبعث على الخوف، فلماذا يخاف منه والده؟ ولماذا والده من دون كل الناس؟

ذات ليلة طفح الكيل!

كان ينام في غرفته حينما سمع صيحة ألم حادة تنبعث من غرفة والده. فانطلق يصعد الدرج ثم اقتحم الباب ليرى والده يتلوى فوق السرير. ولم يحتج الى وقت طويل كي يكتشف ان التهاباً حاداً في الزائدة يعذبه، وانه قد يفجرها بين لحظة وأخرى.

وفيما كان الممرضون يقتادونه فوق الحمالة الى غرفة العمليات، قال الأب مستفسراً: «من الذي سيجري العملية؟»

وأتاه الجواب من احدهم: «احسن جراح في المدينة كلها.. ابنك».

وانتفض الشيخ فوق الحمالة بعنف، وحاول ان يتخلص من الأيدي الممسكة به. ولما فشلت المحاولة بدأ يصيح بكل ما في وسعه:

- «اي طبيب آخر، ولكن ليس ابني.. أي جزار آخر، ولكن ليس ابني».

- لماذا؟ ان آلافاً من العمليات مرت تحت اصابعه بنجاح!

وتشنج فوق الحمالة. كان الألم والرعب يأخذان معاً بخناقه، وصاح وهو يقاوم الغيبوبة بعنف:

- سوف يقتلني... سوف يقتلني...

- أي هراء سخيف!

- هراء أو غير هراء.. لا اريد ان يدخل ولدي غرفة العمليات حتى ولو اراد ان يتفرج.. لا اريده هناك.

كان من العبث ان يستمر النقاش، فهو يعرف والده اكثر مما يعرفه اي انسان آخر. ولذلك فرش ذراعيه مستسلماً، وعاد ادراجه الى غرفة الانتظار.

***

قال الطبيب الذي اجرى العملية: «صدقني كانت عملية والدك

اصعب عملية اجريتها في حياتي! يبدو ان التخدير الموضعي قد اثر عليه فانطلق، طوال العملية، يثرثر.

«حكى والدك اشياء مضحكة لا يفهمها الشيطان نفسه! قال ان أبا محمد ـ ولست ادري من هو هذا المخلوق ـ انسان محايد، لا عاطفة عنده، لذلك يستطيع ان يقتل حصاناً، على حين ان مالك الحصان لا يستطيع ان يفعل ذلك!

«كنت اود ان تسمع كم يجيد والدك الحديث عن صباه. حكى عن امك وعن جمال امك ـ وهنا بكى قليلاً ربما بتأثير روائح الكحول التي انبعثت من الغرفة ـ ثم قال انه يتحمل مسؤولية موتها مع «برق»، بالمناصفة ـ من هو برق هذا؟

«وحكى والدك ايضاً عن حصان كان عنده منذ ثلاثين سنة. لقد ولد في ليلة عاصفة من ام اصيلة واب صحراوي جلبه بدوي معه من قلب البادية. كان اجمل حصان في العالم. في نظر ابيك. كان ذا لون ابيض فضي صاف لا تشوبه اية شائبة. قال ابوك انه لما رأى الحصان، قفز فوق الحاجز ـ وصف ذلك بدقة متناهية ـ وحاول ان يوقف الحصان على قوائمه. ولكن ما ان وقف الحصان حتى لاحظ الجميع ان بقعة كبيرة متعرجة من اللون البني الميال الى الاحمرار تشغل كل جنبه الأيمن. قال ابوك انه اعجب بهذه البقعة لأول وهلة، ولكن ابا محمد ما لبث ان صاح من وراء الحاجز «يجب ان يقتل هذا الحصان فوراً!» وسأله ابوك حانقاً: لماذا؟ فأجاب ابو محمد: ألست ترى بقعة الدم هذه؟ هذه البقعة معناها ان الحصان سوف يكون سبباً في مصرع انسان عزيز. انه يحمل دم الضحية معه منذ ولادته، ولذلك يجب ان يقتل قبل ان يشتد عوده!

«اراد ابوك، كما قال، ان يحطم الاسطورة فلم يقتل الحصان. قال ان الحصان كان سهل الركوب، وكان مطواعاً ذكياً، وانه عاش في حظائره فترة طويلة دون ان يؤذي ذبابة.

«لقد صمت ابوك هنا واستسلم الى الرقاد. أتريد الحقيقة؟ فرحت بصمته اكثر مما فرحت بقصته. هذه الخرافات اجتذبتني حتى كدت اضيع تركيزي، ولذلك عاد العمل الى نصابه لما صمت!

«هل سمعت عمرك عن مثل هذه الاسطورة؟ هل سمعت عن الحصان الذي يحمل دم ضحيته على عنقه منذ ولادته؟ ابوك حكى عن ذلك بايمان صوفي؛ وأنا اعجب.. ألم تناقشه ابداً في أمر هذه الخزعبلات؟».

كانت الشمس على وشك ان تشرق حينما انطلق عائداً الى داره. كان حديث زميله الطبيب ما زال يدور في رأسه.

اذن هذه هي القصة! هذه هي قصة الكراهية التي يحملها ابوه منذ ثلاثين سنة! لذلك بالذات يخاف منه ابوه، ولذلك بالذات يتمنى لو كان حصاناً كي يطلق رصاصة في دماغه!

هذه هي القصة اذن!

البقعة البنية، الميالة الى الحمرة والتي تشغل متعرجة جزءاً كبيراً من جنبه الأيمن وظهره.. بقعة، كتلك التي شغلت جنب برق، دم الضحية كما تقول الخرافة.. البقعة التي قالت له فتاته يوماً وهي تداعبها: «اكبر شامة رأيتها في حياتي - ولكن لماذا تميل الى الاحمرار كأنها بقعة دم؟» هذه هي اذن! ابوه المسكين يخافه لأنه يحمل منذ ولادته دم

ضحيته على جنبه كما حمل برق دم امه سنوات قبل ان يلقيها، ويحطم جمجمتها، ثم يدفع بها الى النهر.

هذا اذن ما عذب اباه ثلاثين سنة وهذا ما جعله يتمنى لو كان ابنه حصاناً كي يكون له حق اطلاق رصاصة في دماغه!

اسطورة سخيفة تقضي على حياة الناس. سخف عاش فيه ابوه ثلاثين عاماً. سد من الرعب قام بين الأب وابنه. لماذا؟ لأن ابا محمد لا يعرف التفسير الطبي البسيط الذي يكمن وراء هذا اللغز المحير. . بقعة بنية ميالة الى الاحمرار. . لأن اباه. .

وقف فجأة في منتصف الطريق وفكر:

«أبي، أبي حاول ان يقضي على هذه الاسطورة، اراد ان يتحدى الخرافة. فماذا كانت النتيجة؟ يبدو ان ابا محمد هو الذي انتصر. لقد خسر والدي المعركة وكان الثمن باهظاً.

«بقعة بنية تميل الى الاحمرار. نحن نعرف تفسيرها، ولكننا لا نعرف لماذا هي هنا وليست هناك. . اليس من الممكن ان تكون علامة؟ علامة من نوع ما؟ لقد قال ابو محمد ان امي كانت تجيد ركوب الخيل وتجيد معاملتها. لماذا قتلها برق، اذن؟ لماذا اصر على تحطيم جمجمتها ثم دفعها الى النهر بلا سبب؟ لماذا هذا الاصرار على قتلها؟

«أبو محمد كسب المعركة، وأبي المسكين خسرها وخسر شبابه معها. ولكنه، ابي المسكين، يخوض معركة اخرى الآن ـ معركة معي ـ من منا سيكسبها!»

سار قليلاً، ثم عاد فوقف. كان خاطر مرهق قد انفجر في رأسه!

ـ «سلمت الجراحة لذلك الطبيب الثرثار الفضولي بملء ارادتي . . لمجرد ان هذيان المريض قد آلمني . ايكون قد قتله باهماله وانصرافه الى الاستماع؟ إذا كان قد فعل، فالقاتل انا. كان بوسعي ان اجري العملية على اكمل وجه، ورغم انف العجوز المسكين! ما الذي ارتكبته ايها الغبي؟»

وقف هنيهة، ثم استدار واخذ يركض عائداً الى المستشفى. كانت الشمس قد بدأت تشرق، وكان يقرع بلاط الشارع المبلول بقدميه الكبيرتين فيرجع الصدى وكأنه خبب حصان.

بيروت ـ ١٩٦١

نصف العالم

مهما يكن. . فإن السيد عبد الرحمن لم يكن يهتم بتاتاً بكل الذين كانوا يضحكون عليه سواء في المقهى، او في المدرسة. . كان رجلاً طويلاً ،طويلاً جداً، وكان الى جانب طوله يتمتع بصحة لا بأس بها، يأكل كثيراً وينام كثيراً. . وكان يعتبر كلا الأمرين متعة من متع الحياة التي لا يستغنى عنها أبداً. وفي احايين كثيرة كان يمضي شوطاً أبعد في التطرف فيصرح بأن الله إنما خلق الانسان من أجل ان يأكل وينام.

ـ «والمرأة؟ . »

هكذا سألته امه مرة. . وكان هو يعرف تماماً الى أي شيء يرمي السؤال. . . إلا ان الأمر كله لم يكن يهمه على اي حال وكان ينقر على الطاولة بأصابعه، ويغلق عينيه نصف اغلاق كي يتحاشى دخان اللفافة الرخيصة التي كانت تتدلى على طرق شفته السفلى ويقول:

ـ «كلا. . . التدخين يأتي ثالثاً. . ثم المرأة. . . »

مهما يكن. . فإن السيد عبد الرحمن لم يكن يعتقد انه نصف مجنون كما كانوا يقولون عنه: امامه او وراءه. ويوماً اثر يوم لم يعد يهمه الأمر. مرة واحدة حاول ان يتصدى لرجل قال عنه انه نصف مجنون وحينما استوقفه وانهى عتابه معه قال الرجل بارداً:

ـ اذن فأنت، على هذا، نصف عاقل. . .

وانتهى الامر بهذه الصورة. . . كان يمكن للسيد عبد الرحمن ان يبقى كل عمره على هذه الشاكلة، رجل نصف مجنون او نصف عاقل يتسلى به الأصدقاء حينما يكون حاضراً ويضحكون عليه حينما يكون غائباً. . . كان يمكن للسيد عبد الرحمن ان يقطع حياته ذهاباً واياباً دون ان يكون شيئاً يستحق الذكر. . لولا ان قفز ذات يوم الى مرتبة اخرى عن طريق حادث وقع له.

ما من احد يستطيع ان يؤكد الآن كيف وقع له ذلك الحادث فأصدقاؤه يقولون ان الحادث وقع عمداً وقصداً. . . ولكن اهل داره يقولون ان الحادث انما وقع بالصدفة. . . ولقد اكد كل طرف مع مر الايام وجهة نظره دون ان يكون لعبد الرحمن نفسه أي رأي بالموضوع حتى ان عداء عجيباً نما بين أصدقائه واهل بيته أدى الى جعل الموضوع كله قضية لا يتنازل أي طرف فيها قيد شعرة عن اعتقاده. .

وهكذا فإن السيد عبد الرحمن صار، فيما بعد، قضية قائمة بذاتها. صحيح ان اصدقاءه بدأوا هذه القضية كنكتة طريفة الا ان الموضوع كله تطور بشكل مغاير فيما بعد. .

دعونا نعود للحادث منذ بدئه فنوجزه، ذلك ان الحادث بالذات ليس هو كل شيء.

كلا، . . . انه لمن الافضل ان نتابع القصة كما تروى بين اصدقائه في المقهى ثم كما ترويها امه في البيت. . .

يقول اصدقاؤه ان عبد الرحمن كان جالساً في غرفته ذات مساء يحاول ان يكتب رسالة ـ والسيد عبد الرحمن كان يكتب كثيراً من الرسائل

الطويلة، وكان في نهاية الامر يرسلها الى نفسه ويقرأها بامعان - كان يكتب واحدة من تلك الرسائل حينما طرأت له فكرة ما لبث ان كتبها، والفكرة غير مفهومة تماماً. وكان اصدقاؤه يقولون انه من الافضل ان تروى بأمانة، وكانوا قد حفظوها عن ظهر قلب:

«لقد اعطانا الله عينين لنرى بهما.. ولما كان العالم قد فلت من بين اصابع الله فان عيناً واحدة تكفي تماماً» لقد واصل السيد عبد الرحمن شرح فكرته ولكن بكلام غير مفهوم وكان خطه يدل على مبلغ اضطرابه، ثم طوى الرسالة وتوجه الى المغسلة حيث استطاع بجرأة نادرة ان يفقأ احدى عينيه بذات القلم الذي كتب به الرسالة. هكذا تروى الحادثة على السنة اصدقائه...

اما اهل بيته فيروونها بشكل مغاير، تقول امه انه كان في الحديقة وكان يعنى بشجرة تفاح زرعها صغيراً... ولقد شاهد ذلك الصباح فرعاً جافاً ميتاً فحاول انتزاعه إلا ان الغصن الصغير كان مشدوداً بقوة الى الشجرة الفتية، ولما كان السيد عبد الرحمن عنيداً فإنه استمر يشد الفرع بضراوة، وفجأة انسلخ الفرع بعنف ودخلت مقدمته بعينه فاقتلعتها...

وعلى اي حال فإن هاتين الروايتين وان كان لهما بعض الأهمية فإنهما لا تستأثران بها كلها، ذلك ان ما حدث فيما بعد كان اكثر غرابة.

لقد حمل السيد عبد الرحمن الى المستشفى وأجريت له عملية جراحية خطيرة.. ولحسن الحظ ان العملية نجحت نجاحاً شبه كامل، لقد استطاع الطبيب ان يوقف النزيف وان يمنع الالتهاب وان يقلل التشويه قدر الامكان إلا انه لم يستطع ان يعيد البصر الى تلك العين ابداً. وفي

الايام التي تلت لاحظ اهل السيد عبد الرحمن امراً غريباً، وهنا بالذات انتقل عبد الرحمن من مرتبة الى مرتبة اخرى وأصبح «مسألة»: صار يشاهد نصف الأشياء فقط. فهو حينما ينظر الى رجل جالس على كرسي كان لا يستطيع ان يشاهد إلا الرجل واذا تطلع الى الكرسي فهو لا يستطيع ان يرى الرجل الجالس فوقها.. وكانت الظاهرة حتى بالنسبة لأهله طريفة جداً بادىء الأمر فحينما كانت امه تدخل الغرفة مع اخته كان لا يستطيع ان يشاهد في الوقت الواحد الا واحدة منهما وكان يسألها عن الأخرى. وقد شرحت امه الحادثة لاحدى الجارات قائلة انها تعتقد أن ولدها ما زال واقعاً تحت تأثير المخدر الذي استعمله طبيب جاهل اثناء اجراء العملية الجراحية، والذي كان يوشك يومها ان يودي بحياته. وكما يحدث في كل زمان ومكان نقلت الجارة الكلام الى جارة اخرى، حيث تولت الأخيرة نشره في ارجاء الحي كله صعوداً ونزولاً...

ومضت ايام كثيرة الا ان السيد عبد الرحمن على عكس ما توقعت امه لم يتحسن بل زاد تطرفاً في الأمر، وبعد عام واحد تقريباً لم يعد أي انسان قادراً على اقناع السيد عبد الرحمن بأن الكرسي ما زال مكاناً لجلوس رجل كما كان قبل الحادث وان الذي دخل الغرفة اثنان..

وفي المقهى قال طالب جامعي للاصدقاء بان السيد عبد الرحمن اذا بقي على هذه الصورة فإن تبدلاً اساسياً سوف يحصل عنده ليس فقط في عالم الأشياء المادية بل في عالم الأفكار. واثبتت الايام التالية ذكاء ذلك الطالب اذ ان تحولاً كبيراً طرأ على افكار السيد عبد الرحمن، ولم تعد نظرته للاشياء المادية تستأثر بدهشة الناس بقدر ما كانت افكاره العجيبة تفعل ذلك. اصدقاؤه يقولون انه لم يعد بوسعه ان يرى الا نصف

الحقيقة، وهنا لا يستطيع اي واحد منا ان يوافق، فعبد الرحمن نفسه كان يقول انهم هم الذين يقسمون الحقيقة، اما هو فإنه يراها كاملة . .

لقد وقف الطب عاجزاً هنا، وقال طبيب أجنبي انه لا يوجد اي حل، ذلك انه حينما انهى فحص السيد عبد الرحمن اخذ يصف له دواء، الا ان عبد الرحمن رفض ان يستمع، وقال للطبيب:

ـ انت تعطي الدواء للمريض او للمعافى؟

ـ «للمريض طبعاً» . . .

ـ «إذن لماذا تعطيه لي»؟

ـ لأنك مريض . . .

ـ «إذا كنت مريضاً فكيف تثق انني سأتبع نصائحك؟ انت تخاطب معافى! . . ولذلك فأنت تخاطبه بكل هذه الثقة»

وهنا تطورت المسألة أكثر . . .

فلقد قال لأصدقائه ذات يوم، وكانوا يتحدثون عن مبلغ حزن صديق لهم رسب في الامتحان، قال لهم: ان هذا كذب، فليس ثمة في العالم شيء اسمه حزن، وانهم لا يستطيعون الا ان يكونوا اغبياء، فلا يوجد في الواقع الا الفرح. ومضى يؤكد رأيه فقال لهم ان الفرح وحده هو الموجود وإذا كان الفرح موجوداً فهذا يعني انه لا يوجد سواه. . . .

ـ «واذا ماتت امك يا عبد الرحمن. . الا تحزن».

هكذا سألوه محاولين اقناعه، لقد فكر قليلاً ثم قال. .

ـ «امي لا تموت» . .

- كيف؟

- «لأنها لم تمت قبلاً» . .

- «لو افترضنا انك ذهبت الآن الى داركم فوجدتها ميتة ماذا ستفعل؟» . .

- «لا شيء» .

- «ألا تحزن؟» .

- احزن؟ كلا . . لقد ماتت وهذا يعني انها لم تعد حية ولذلك فإن الحزن لا مبرر له وغير موجود . .

- ولكن امك كانت حية وماتت، الا يختلف الامر؟

- «كلا طبعاً حينما تكون ميتة فهي غير حية اذن ـ وهكذا فانه لا يوجد الا شيء وكل شيء آخر وهم» . . .

وكان من العبث ان يستمر اصدقاؤه بالاقناع ذلك انه لم يكن بالمستطاع جعله يفكر بأمرين معاً او يرى الامرين معاً ولا شك ان اصدقاء المقهى دون ان يشعروا كانوا يدفعون به الى موقف اشد تطرفاً ولقد صارت قضيته دون ان يشعروا ايضاً شغلهم الشاغل وصاروا يعدون لمواجهته آراء مجمعة يقذفونها بوجهه فور ان يستوي على كرسي المقهى وكان يرد لهم آراءهم ببساطة دون ان يبدو عليه ادنى تأثر . .

واخيراً لم يعد باستطاعة اصدقائه ان يوقفوا انفجارهم .

- «لماذا لا تفكر مثلنا؟ مثل كل الناس؟»

صمت قليلاً ثم قام عن كرسيه ومضى، ولكنه قبل ان يجتاز الباب التفت من جديد وقال:

- «حينما تتكلمون استمع اليكم وأصدقكم، ولكن لما أبدأ الكلام تختفون، حينما تكونون انتم ليس بوسعي ان اكون وحينما اكون انا ليس بمقدوركم ان تكونوا..»

لقد حدقوا اليه بامعان وكانوا مذهولين تماماً، وعندها عاد فاتكأ على الطاولة وقال:

- «ان العالم كله يجب ان يكون مرتباً، فإذا وجد اي شيء فانه من الطبيعي ان تكون بقية الاشياء غير موجودة»

كان ما زال متكئاً على الطاولة حينما صاح به احد الجالسين:

- «على اي شيء تتكىء انت الآن...»

- «على الطاولة»

- «إذن؟»

- «الطاولة شيء تافه كما ترون ولكنني حينما افكر بها انسى نفسي وحينما افكر بنفسي انساها.. كيف باستطاعتكم ان تفكروا بالأمرين معاً؟ الا تبدو لكم الافكار اذا كانت كذلك غير طبيعية ومتعبة؟ إن واحداً منا فقط، ،أنا أو الطاولة يجب ان يكون موجوداً في الوقت الواحد»

- «ولكن اذا حركنا الطاولة وقعت انت»

- «ذلك لأنني اكون غبياً اذا اتكأت على شيء غير موجود».

وكانوا يقولون له:

- «شيء غريب حقاً الا تقبل ان تكونا موجودين معاً، لماذا لا تكون انت والطاولة موجودين في وقت واحد؟»

- «لأنه غير صحيح: لانهما غير موجودين معاً ولان تفكيري انا ادعى الى الراحة. . .»

ومع مرور الايام كان السيد عبد الرحمن يزداد تمسكاً بآرائه. . . وكما يحدث دائماً حينما يواجه المرء بكثير من المعارضين انصرف السيد عبد الرحمن الى التبشير بتلك الأفكار وهكذا فانه استطاع ان يدفع بأصدقائه الى التفكير بطريقة اخرى.

- «هل هذا مرض ام فلسفة»؟ . .

كان من العبث ان يقتنع وكان من العبث ان يفهم اصدقاؤه الذين صاروا يشفقون عليه، إلا ان بعض اولئك الأصدقاء بدأ يدافع عنه. . كانوا يتصورون انه يعيش في عالم مرتب وغير مربك وهادىء وكانوا يتمنون لو يستطيعون ان يفقدوا عيناً كي يصبح عالمهم مرتباً مثل عالمه، إلا أن بقية الاصدقاء لم ييأسوا من اصلاحه رغم كل شيء، وهكذا فإنهم انتظروا طويلاً كي تصل رسالة باسمه الى المقهى. ولما كان اصدقاؤه يعرفون ان هذه الرسالة منه واليه كالعادة فلقد اقترح عليهم احدهم ان يأخذوا الرسالة ويخفوها حتى اذا ما سأل عنها ذات يوم بدأوا معه النقاش من جديد. ولما كانت الرسالة في حوزتهم فانهم سوف يدمرون ذلك العالم المرتب الذي يعيش فيه من دونهم. . . إلا ان عبد الرحمن لم يسأل قط عن رسالته ولقد مر حوالي الشهرين دون ان ينظر الى

لوحة الرسائل في المقهى مستفسراً. . . وأخيراً قرر الاصدقاء ان يقرأوا ما فيها وتحلقوا حولها ثم فتحوها. . لم يكن فيها إلا جملة واحدة: «ان الحياة صعبة جداً اذا كانت للجميع. . »

هذا هو كل شيء، لقد انتهت القصة ولم يبقَ ليقال إلا شيء واحد. .

السيد عبد الرحمن ما زال على قيد الحياة وما زال يؤمن بآرائه تماماً. . .

ولقد شوهد آخر مرة يمشي في الشارع العام، كان يطوي كفيه خلف ظهره وكانت السيارات تمرق حواليه بجنون وهوس ولكنه كان يمشي بهدوء، وكأن واحدهما ـ هو او السيارات ـ غير موجود.

بيروت ـ ١٩٦١

الشاطىء

كان الراهب الشاب على وشك ان يمضي الى غرفته حين لمحها تطل برأسها من باب الكنيسة وتدور بصرها في القاعة الفسيحة، ثم تعود فتقف على رأس السلم الحجري العريض.

كان الوقت عصراً، وكانت السماء قد امطرت قبل قليل فبللت الدرج وغسلت قرميد السقف واعطت الاشجار الكبيرة في حديقة الكنيسة لوناً متوقداً، وكانت نتيجة ذلك كله ان اكتسى الجو بطابع جديد تماماً، ولكنه طابع متعب، ولا شك ان اولئك الذين كانوا يعتزمون الخروج من بيوتهم للتسكع او الجلوس في المقاهي، او زيارة الاصدقاء، قد فضلوا البقاء فيها، وهكذا فقد وصل النهار الى نهايته قبل موعده العادي، وخلا الشارع الطويل الذي تقع الكنيسة على مدخله الشمالي من المارة الذين اعتادهم في مثل هذا الوقت، وكان سواده النظيف يلتمع الى ما لا نهاية، عاكساً صور الاشجار العارية المصطفة على جانبيه فوق برك واسعة من الماء خلفها المطر، راكدة، الى جانب الرصيف.

مشى الراهب بين صفوف المقاعد الى الخارج، كان قد انتهى لتوه من مراسم زواج، وحين خرج العروسان والحضور عاد كل شيء الى صمته وهدوئه وعاد اليه ـ في الوقت ذاته ـ احساس عميق بأن الجو كله يجثم فوق صدره. لم تكن به رغبة العودة الى قراءة الكتاب الذي تركه

قبل وصول العروسين، وفي تلك اللحظة بالذات لمحها تطل من باب الكنيسة ثم تعود فتقف على رأس السلم الحجري، فلحق بها، وحين وصل الى الباب كانت قد نزلت بعض السلم: كانت تلبس ثوباً فاتح الزرقة وقد لفت عنقها وكتفيها بشال ابيض خشن، وكان صوت حذائها يقرع بلاط السلم بصوت اجوف جعله يعتقد بأن مقاسه اكبر من مقاس قدميها، وليس يدري لماذا قال لنفسه بأنها قد استعارته من مكان ما.

- «هل استطيع ان اخدمك، يا سيدتي؟»

وقفت المرأة في مكانها دون ان تلتفت، وفي اللحظة نفسها ردّ الصدى صوته فأحس بخلو الشارع وبكثافة الجو، وتساءل، في ذات نفسه، عن السبب الذي يحمل مثل هذه المرأة على القدوم الى الكنيسة وحيدة وفي مثل هذه الساعة، إلا ان المرأة بقيت واقفة في مكانها دون ان تلتفت، فكرر بصوت خفيض:

- «هل هناك ما استطيع ان اقدمه لك، يا سيدتي؟»

دارت حول نفسها ببطء وحين واجهته تماماً لاحظ ملامحها المتعبة، كان وجهها مغضناً إلا انه كان قد زين ببراعة ووقار وكان الثوب الازرق مغلقاً حتى اعلى العنق وقد تراخى الشال الابيض الخشن امام الكتفين حتى الساعدين، كانت تحمل في كفيها المعروقتين باقة صغيرة من ورد أبيض تشدها الى صدرها، وخيل للراهب انه امام امرأه لديها الكثير لتقوله.

قالت بصوت هادىء كأنها تتابع حديثاً بدأ بينها وبين نفسها:

- «لقد لبست ثوب العيد.. انني لم البسه منذ توفي فارس.»

- «إنه ثوب جميل يا سيدتي.»

قال الراهب ذلك وهو يكتف كفيه داخل كميه ويغمض عينيه باستسلام، ومضت المرأة تقول كأنها لم تسمعه:

- «ورغم ذلك فقد انتهى كل شيء قبل ان اصل الى هنا!»

- «اي شيء يا سيدتي؟»

فتحت فمها لتتكلم إلا انها عادت فشدت شفتيها الى بعضهما باصرار، وامتلأت عيناها بالدمع فجأة وحين لم تستطع التغلب على دموعها لوحت بيدها اشارة مبهمة الى داخل الكنيسة..

هز الراهب رأسه وابتسم مشجعاً ثم خطا خطوة فنزل درجة من الدرجات العريضة المبتلة: كان يفكر بدفعة كبيرة من الامور مرة واحدة، وكانت افكاره تشغله عن ملاحقة حديث المرأة واشاراتها، إلا انه - على اي حال - كان يعتزم مساعدتها حقاً.

- «كلا يا سيدتي، لم ينته اي شيء هنا، الكنيسة موجودة دائماً يا سيدتي.. انت تريدين الاعتراف أليس كذلك؟»

ارتدّت المرأة خطوة الى الوراء كأنها فوجئت بلطمة لم تتوقعها. وشدت على باقة الورد بين كفيها وقالت:

- «اعترف؟ لماذا؟ لا! انا لم اجىء لكي اعترف..»

نظرت الى الأرض قليلاً ثم رفعت رأسها ونظرت مباشرة في عينيه:

- «لا! على غيري ان يعترف، غيري.. انا لم اجىء لمثل هذا الامر..»

- «اذن لماذا جئت؟»

- «جئت احضر الزواج»

- «انا آسف ان الزواج فاتك، لقد تأخرت عشر دقائق على الاقل . . »

- «كلا! انا لم اتأخر، لقد سألت عن الموعد اكثر من مرة، اكثر من عشر مرات، وجهدت لأكون هنا قبل الزواج بخمس دقائق، وها انت ترى، لقد تزوجت دون ان اكون هنا فضاع علي العرس مرة أخرى» .

رفع الراهب الشاب رأسه الى السماء الرمادية وتنفس الهوا ء النقي ملء رئتيه ثم اجال بصره في الشارع الطويل الممتد الى ما لا نهاية . كانت - هناك - قطة بيضاء صغيرة تحاول اجتياز الشارع، إلا ان بركة من الماء كانت تحول بينها وبين الوصول الى الرصيف، وكانت القطة الناصعة البياض قد تدبرت امرها حتى حافة البركة بالقفز فوق مجموعة متفرقة من الأحجار المنتشرة على مسافات متباعدة، بين الرصيفين، ووقفت هناك تتطاول بعنقها مستكشفة ما حولها، وفي كل مرة كانت تمد يدها الى الماء كانت ترتد عائدة الى الوراء خطوة، داخلة في نفسها،متحفزة من جديد . .

- «كان بوسعي ان آتي في اي وقت، ليس ثمة ما يشغلني، انت تعرف، انا امرأة عجوز اعيش وحيدة تماماً منذ توفي فارس، لقد كنت على استعداد للحضور في اي وقت، كنت قد جهزت ملابسي ليلة امس: نشرتها في الهواء ثم كويتها في الصباح وارتديتها قبيل الظهر ووقفت امام النافذة انتظر وانا احدق الى الساعة، ورغم ذلك . . »

- «أهي قريبتك؟»

- «من؟»

- «العروس؟»

- لا، لا، انها ليست قريبتي، لا اقارب لي هنا ابداً، انني لا اعرفها..»

- «لا تعرفينها؟»

مرة أخرى دارت القطة الناصعة البياض حول نفسها، إلا انها عادت الى وضعها السابق، وفكر الراهب الشاب في خطة القطة، تراها ماذا ستفعل الآن؟ ولماذا تريد عبور الطريق؟

في تلك اللحظة مدت القطة ساعدها، وحين لمست الماء ارتدت الى الوراء وطفقت تفكر من جديد.

- «لقد اخرجت الثوب من الصندوق ليلة امس، انني لم البسه منذ توفي فارس، هو الذي اشتراه لي، وكنت قد اقسمت بعد وفاته ان لا البسه ابداً، ولكن الامر يختلف الآن، انت تعرف، يجب على الله ان لا يعاقب اولئك الذين يحنثون بالقسم لأن المرء لا يعرف ماذا تخبىء له الايام، وهأنذا قد تخلفت عن الموعد رغم كل شيء، كأن الله يريد معاقبتي، كأن..»

نظرت فجأة الى باقة الورد الأبيض في كفيها ومضت تهز رأسها بأسى، ثم رفعتها اليه:

- «..ولقد اشتريت ورداً ابيض ايضاً! هل تتصور ذلك؟ اشتريت ورداً ابيض!. منذ ابكر الصبح وانا اطوف في السوق لأعثر على هذه الباقة... او تدري كم دفعت ثمنها؟»

هز رأسه متسائلاً، ولاحظ ان دموعها قد بدأت تسيح على خديها:

- «منذ اربعة ايام لم اتناول طعام الغداء لأوفر ثمن هذه الباقة، هل تصدق؟ انه لمن العار ان يأتي المرء الى عرس دون ان يحمل شيئاً بيده، ثم ماذا؟ انت ترى الآن، لقد تزوجت قبل عشر دقائق دون ان اكون هنا..»

تلفت الراهب حواليه محتاراً، كان غير قادر على فهم ايما شيء، ثم سأل بلطف محاولاً ان لا يسيء الى دموعها:

- «قلت انك لا تعرفينها..؟»

- «لا، لا اعرفها، ربما اكون قد شاهدتها مرة او مرتين فقط..»

مد الراهب بصره الى الطريق، كانت القطة ما تزال واقفة في مكانها حائرة، لقد اعطاه لونها الابيض المثبت على كل تلك الخلفية السوداء للطريق الخالي شعوراً حاد المرارة بالوحدة والغربة، وفي اللحظة التالية اكتشف ان القطة انما تريد الوصول الى البقعة الجافة الوحيدة في الشارع، وكانت تلك البقعة تقع تحت شجرة لم تسقط كل أوراقها بعد..

- «اذا كنت لا تعرفينها فلماذا تريدين مشاهدة اكليلها؟ لماذا اشتريت الورود اذن؟»

اسقطت المرأة ذراعيها على جنبيها فتدلت باقة الورد من كفها وبدت - وهي مقلوبة - ان لا قيمة لها:

- «إنها صديقة ابنتي، صديقتها منذ الطفولة..»

ترقب ان تكمل، الا انها صمتت وتركت دموعها تنهال على خديها

بلا هوادة، وحاول هو ان يخفف من حزنها:

- «هل تشكو ابنتك شيئاً؟»

- «كلا، انها سعيدة جداً مع زوجها.»

- شكراً لله، لماذا البكاء إذن؟ اذا كان زوجها رجلاً طيباً، وكانت...»

- «انا لا اعرف زوجها، لم اقابله قط؟»

- «كيف؟»

نظرت اليه دون ان تكف عن البكاء، ثم عادت فحدقت الى باقة الورد المقلوبة واخذت تهز رأسها:

- «لقد سافرت قبل خمس سنوات الى البرازيل، وتزوجت هناك.. لم احضر عرسها ولم ارَ زوجها منذ ذلك الحين، لا شك انك تستطيع ان تفهم ذلك، لقد انشأتها وربيتها كما اراد الله واراد ابوها وارادت هي، وحين تزوجت لم اكن هناك، لم اشهد عرسها، بل انها لم ترسل لي صورة العرس..»

لم يدر ماذا يتعين عليه ان يقول، ولكنها كانت واقفة هناك تبكي وتهز الباقة البيضاء باحدى يديها وتمسح دموعها بطرف شالها، وبعد لحظة لم يجد بداً من قول اول كلمة خطرت على باله:

- «لقد كانت بعيدة»

- «نعم، كانت بعيدة، ولكن ماذا يعني ذلك كله؟ لقد عشت انتظر ذلك اليوم طوال عمري، حلمت به كل ليالي: ان اقف الى جانبها تحت سقف الكنيسة العالي واراها تخطر امامي مع عريسها. انت تعرف كل

هذه الامور . . انت تعرف . . »

- «ألا تكتب لك؟»

- «طبعاً! كل ستة شهور مرة، انت تعرف، انهن لا يفكرن بأمهاتهن بعد ذلك، لقد عرفت صدفة، قبل اسبوعين، ان صديقتها ستتزوج وعرفت موعد الزواج، سألت عنه اكثر من عشر مرات كي لا يفوتني . . وهأنذا قد تأخرت عشر دقائق فضاع عليّ العرس مرة أخرى»

- «مرة أخرى؟»

ولكنها لم تسمع، لقد استدارت وبدأت تهبط درجات السلم فيصدر حذاؤها ذلك الصوت الأجوف. وقال الراهب في ذات نفسه وهو ينظر الى شعرها الاشيب: «لقد حسبت انها تريد ان تعترف . . » كانت غيوم سوداء قد بدأت تصعد الى السماء من خلف الجبل متراصة مسرعة، وعرف انها على وشك ان تمطر مرة اخرى، لقد سقطت نقاط كبيرة من الماء وشاهدها تشكل دوائر مسلسلة في برك المياه المتناثرة الى جانب الرصيف، عندما فكر في القطة البيضاء، وحين نظر اليها كانت قد بدأت تتحفز: فرشت ساعديها وطوت ساقيها فمس بطنها الأرض واخذت تهز جسدها بارتقاب مهتاج وتضرب الارض المبتلة بذيلها، وفي اللحظة التالية قامت بقفزة واسعة، الا انها لم تستطع ان تجتاز البركة فسقطت في ربعها الأخير واخذت تضرب الماء بأطرافها محاولة الخلاص، كانت البقعة الجافة تقع على بعد ذراع واحد فقط، ورغم ذلك فقد كانت تبدو بعيدة جداً بالنسبة للقطة البيضاء التي كانت تقاوم الغرق بصخب وجنون، فيما بدأت الاجواء تقصف بالرعد . .

بيروت - ١٩٦٢

رسالة من مسعود

قال لنفسه: «ستقول لي بعد هنيهة انه موعد العشاء، هيا بنا».

كانت زوجته جالسة امامه مباشرة وكان منهمكاً في قراءة جريدته، ليس يدري لماذا يتعين عليه ان يمسك بالجريدة، دائماً في مثل هذا الوقت، وينهمك في قراءتها. . انه في الواقع لا يقرأ شيئاً، يعلق عينيه في السطور السوداء ثم يطير مع افكاره الى ألف عالم بعيد، واسع للغاية، ولكنه بغير مسافات. .

ـ انه موعد العشاء، هيا بنا.

طوى جريدته ورماها فوق الكرسي وتبع زوجته الى المطبخ حيث اعتادا ان يتناولا عشاءهما، كانت الخادمة قد اعدت كل شيء بمنتهى الاعتناء والنظام، سحب كرسيه وفكر: «لا بد ان يكون الشاي بارداً، أو خفيفاً، سوف تلاحظ ذلك الآن». . جلس بهدوء وانتظر.

ـ ايها الشيطانة البشعة. . . ابريق الشاي يكاد يتجمد برداً.

ابتسم ابتسامة خاطفة وفكر: «الآن يجيء دور الخادمة، هذه المسكينة». .

ـ اننا ندفع لأبيك ثلاثين ليرة شهرياً. . الا انك لا تستحقين اكثر من ثلاث ليرات!. .

مد يده الى صحن الخبز فتساقطت الافكار في رأسه: «سوف تشتم الفران الآن.. اما بائع الفواكه فانه انسان طيب، لقد نسيت ان تكتب شكوى للبلدية كي تراقب ميزان اللحام الخبيث الذي الصق في اسفل احدى كفتيه قطعة نحاس كبيرة... الجيران، فوق، ينقلون اثاثهم كل يوم ويا ليتهم يرفعونه عن الارض!.. كلا! انهم يجرونه جراً رغم انهم ست بنات وشابان.. البنت الكبرى، يا الهي، كانت اليوم بصحبة شاب في سيارة صغيرة وانزلها في أول الشارع... وماذا عن الهاتف؟»

صحا فجأة على صوت زوجته:

ـ ماذا حدث لك؟ اتراه شيء جميل هذا الذي يحدث في المريخ؟ ها! حسبت انك كنت هناك. كنت اقول ان بنت جارنا قد تخطب بين يوم وآخر، صديقها اليوم صعد معها الى فوق... لأول مرة تيسرت لي رؤيته عن كثب، كنت بالمصادفة مارة من...

«اذا ما انتهى العشاء ستقوم الى الراديو وسيقوم الى جريدته، ثم يأتي موعد النوم.. وعليه ان يترقب هنيهة قبل ان يدخل الى الغرفة، يشغل نفسه بأي امر، ثم يلج الباب، ولسوف تكون واقفة امام المرآة، فاذا كانت قد حلت شعرها فمعنى ذلك انها تدعو ، واذا كانت مطمورة تحت اللحاف فمعنى ذلك انها لا تدعوه... وحين يأتي الصبح يدق المنبه فتقول له بصوت رخو...»

قام عن كرسيه فجأة، واشعل لفافته واتكأ على الحائط، كانت تنظر اليه هلعة، ذلك انه لم يعتد ان يقوم قبل ان تقوم هي، الا انه قال:

ـ وصلتني اليوم رسالة طريفة من صديقي..

ـ أي صديق؟

ـ مسعود . .

ـ مسعود؟

ـ نعم . .

ـ مسعود؟ ها! مسعود الذي مات منذ ست سنين!

ـ كلا، كانت كذبة، مسعود لم يمت . .

قامت اليه ووقفت امامه مباشرة:

ـ والآن، اسمع، ماذا حدث لك؟ اي نوع من المداعبة هذا الهراء؟ اتريد ان اذكرك؟ حسناً، لقد مشيت في جنازته، وحملت في من حمل نعشه، وبكيت موته كالطفل، اتريد ان اوقظ ذكرياتك اكثر؟ كان جسده محطماً ممزقاً اثر تلك السقطة الرهيبة . .

ـ وان يكن ! مسعود لم يمت . .

نظرت اليه خائفة ثم حاولت ان تبتسم، الا انها لم تستطع الا ان تفتح فمها، وقال هو هادئاً:

ـ ماذا؟ اتحسبين انني مجنون او سكران؟

اقترب منها ببطء وهزها من كتفيها:

ـ اتحسبين انني كذاب؟

تركها، ودار حول الطاولة . . كان يعرف انها تكاد تثقب ظهره بنظراتها فيما كان يشعر بشلال من المياه الباردة تغسله من الداخل بنوع

من النشوة..

ـ قلت لك انني تسلمت منه رسالة اليوم..

ـ اذن، ارني الرسالة..

استدار، كانت ما تزال تنظر اليه، الا ان شبح ابتسامة ساخرة كان يرتسم على وجهها..

ـ الرسالة؟ آه، لقد نسيتها في المكتب..

ـ اننا نلعب..

ـ اننا لا نلعب! اسمعي! اتريدين ان اقول لك ماذا في رسالته؟ كلا.. اريد ان يبقى ذلك سراً.. هذه هي رغبته، نعم، هكذا كتب يوصيني، قال: لا بأس ان تقول انك قد تسلمت رسالة من صديقك القديم، ولكن حاذر ان تقول ما الذي قرأته فيها.. نعم، وهذا هو السبب في انني لم احضرها معي الى هنا..

عادت زوجته الى الطاولة وصبت لنفسها قدحاً آخر من الشاي:

ـ لقد اصبح هذا الشاي نوعاً احمر من الجليد... هذه الشيطانة القبيحة لا تستحق شيئاً بالمرة!

ـ أتريدين ان تعرفي اين يعيش مسعود الآن؟..

ـ كلا، كلا لا اريد، اغلب الظن انه يعيش في.. حسناً، اين يعيش صديقك الميت؟

ـ انه يتنقل في انحاء العالم، كل يوم في مدينة.. كل يوم تحت شمس

اخرى، وكل ليلة في سرير آخر . . لقد جرب نصف مطاعم العالم . . وقال لي انه لا يعرف اين سيكون غداً ومن الذي سيكون صديقه بعد ساعة . . .

قطعت زوجته الزبدة بالسكين الطويلة ثم صاحت:

ـ اوف! ايتها الشيطانة القبيحة، قلت لك ان لا تخرجي الزبدة من البراد إلا قبل العشاء مباشرة. انظري اليها كيف صارت ماء! مجرد ماء لا اكثر ولا أقل . . لن تفلح في اغاظتي!

ـ انا لا اغيظك! انا لا أحاول ذلك . . إسمعي، لقد طلب مني ان لا اكتب له لانه لا يعرف لنفسه عنواناً . .

قالت زوجته:

ـ ألم يقص عليك صديقك العزيز قصة موته؟ اعني، اعني كيف حدثت الخدعة؟

ـ انه لا يعرف شيئاً عن ذلك كله . . بل هو لم يسمع حتى بالخبر.

ـ انه صديق عزيز حقاً هذا الذي يذكرك بعد ست سنوات من الفراق.

هز رأسه بأسى ووافق . .

ـ انه صديق عزيز حقاً! اتعرفين؟ انه لا يعرف انني قد تزوجت . . اعني انه نسي ذلك . .

ـ وماذا عنه هو؟ هل تزوج؟

ـ تزوج؟! اوه، كلا، كلا.. انه لم يتزوج، لقد كتب يقول لي انه لم يتزوج.. وانه لا يفكر بذلك الآن..

قامت زوجته وتوجهت الى باب المطبخ، ثم صاحت:

ـ تعالي ايتها الشيطانة وأعيدي كل شيء الى مكانه.. ضعي الزبدة في البراد وليس في الفرن، هل سمعت؟ حسناً، ماذا قال صديقك ايضاً، يبدو ان الرسالة كانت طويلة..

ـ اوه نعم، كانت طويلة جداً.. لقد كتب يقول انه لا يمانع في ان يمر من هنا، ذات يوم، فيأخذني معه..

ـ يأخذك؟

سألته بعنف وهي على وشك ان تترك المطبخ، فاقترب منها وضمها بين ذراعيه بينما ابعدت كفيها مفتوحتين عنه كي لا يتسخ قميصه بآثار الزبدة.

ـ اوه! لقد قلت انه نسي انني رجل متزوج... وعلى أي حال، لو مر من هنا فلن اذهب معه، انا رجل متزوج..

تخلصت من عناقه، ومضت الى المغسلة بينما ظل هو واقفاً في حلق الباب.. ثم سمع صوتها يأتي من بعيد:

ـ وماذا ايضاً؟

ـ اوه! لا شيء يهمك، كل ما تبقى من الرسالة كان مشغولاً باخباره وأخبار مغامراته ورحلاته... لقد صرفت وقتاً طيباً وأنا أقرأها، كم بودي لو يظل يكتب لي.. أتعرفين؟

عادت، فوقفت امامه وكتفت ذراعيها على صدرها..

ـ نعم؟

ـ انه شيء رائع ان يكتب لي بين الفينة والأخرى..

ـ ومتى تعتقد انه سوف يكتب لك مرة ثانية؟

ـ اوه، لست ادري! من اين لي ان ادري؟.. على اي حال، يجب ان يفعل ذلك بسرعة.

امسكت به زوجته من كتفيه وهزته ثم تكلمت ببطء وهدوء:

ـ اسمعني جيداً.. هل انت هنا؟ حسناً، لقد استمعت الى كل رسالة صديقك.. لقد كانت رسالة ممتعة، لقد انتهى الامر اليس كذلك؟ سوف لن تتحدث عنها اكثر.. قل لي انك لن تتحدث عنها اكثر..

نظر اليها مشدوهاً ثم قال:

ـ ألا يهمك ان تستمعي الى اخبار مسعود؟ ها! انت تريدينني ان اقرأ رسائله وحدي دون ان اطلعك عليها، حسناً، أتوافقين، لن اقرأ لك، لن اخبرك بأي شيء عن رسائله،اتفهمين؟.. سوف اقرأها وحدي، استمتع بها وحدي.. أتفهمين؟

هزت رأسها وهي تغمض عينيها:

ـ افهم، اوافق... شرط ان..

ـ لا أريد شروطاً! اه كم خسرت ايتها المرأة.. آه كم خسرت!

اتفقنا.

حلت يديها عن كتفيه ثم نظرت الى الساعة:

ـ انه موعد النوم..

دارت على عقبيها ومضت الى الغرفة حيث حلت شعرها امام المرآة...

بيروت ـ ١٩٦٢

جحش

لا يعترف مسعود بك بالحقيقة الا بينه وبين نفسه، وفي اللحظات القليلة التي يواجه بها المرء، عادة، ضميره بصدق وشجاعة، وهذه هي الحقيقة، هي انه انما كان يقود سيارته بسرعة خارقة حين وقع الحادث المشؤوم، وان المؤشر الأحمر كان يقفز كالشيطان من رقم الى رقم على لوحة السيارة الأنيقة امام بصره، وحين وجد نفسه امام اللحظة الحاسمة لم يكن باستطاعته ان يقف، وبثبات اعصاب تلقى الصدمة، وبذل جهداً عنيفاً ليحد من انحراف سيارته الفارهة، ودون اي تردد اكمل طريقه.

وهو على يقين، الآن، انه لم يكن يحسب بأن مضاعفات الحادث ستصل الى ما وصلت اليه فيما بعد. ففور ان اجتاز الضحية بدأ يفكر في اصلاح سيارته، فمما لا شك فيه ان واجهتها قد تحطمت اثر الصدمة، وقد استغرقه التفكير في هذه المشكلة حتى انه لم يلاحظ سيارة صغيرة قد اجتازته بسرعة اكثر جنوناً من سرعته، وحتى لو لاحظها فانه لم يكن على استعداد ليتصور ان سائقها كان يريد ان يصل، قبله، الى اول مركز شرطة ليبلغ عنه.

ولذلك فحين شاهد الحواجز الخشبية التي اقيمت على الطريق لم يخطر بباله انها انما اقيمت لايقافه هو، فقط حين طلب منه الضابط ان

يلحقه الى مكتبه تذكر الحادث فجأة ولكنه لم يحسب قط ان تلك اللحظة ستكون بداية لمشكلة استمرت بعد ذلك عامين وثلاثة شهور. .

فقط ، بينه وبين نفسه، وفي لحظات خاصة، كان على استعداد ليعترف بأنه كان يسوق سيارته بسرعة غير معقولة، ولكنه، امام الشرطة وامام المحكمة وامام اصدقائه وامام رجال الصحافة اصر على القول بأنه كان يسوق سيارته بهدوء وان امهر سائقي العالم لم يكن ليستطيع تجنب ما حصل.

الآن، بعد مرور عامين وثلاثة شهور على ذلك اليوم المشؤوم، ما الذي حصل في الحقيقة؟ ان مسعود بك، الذي عاش كل هذه المدة على اعصابه لحظة وراء لحظة، هو المصدر الوحيد على الرغم من انه هو المتهم، وفيما عداه كان يوجد مصدر آخر هو سائق السيارة الصغيرة الذي بلغ عنه وقد اعترفت المحكمة بأن هذا السائق لا يعتبر مصدراً موثوقاً، فهو نفسه قد قال بأنه شهد الحادث عن بعد، وكان المطر والظلام يشوهان كثيراً من التفاصيل، اما المصدر الثالث فقد كان الضحية، ولكن الضحية ماتت.

حاول مسعود بك ان ينكر، في البدء، كل القصة، إلا ان واجهة سيارته المشوهة كانت شاهداً قاطعاً، وقد استطاع ان يتدارك الأمر قبل فوات الأوان حين استبعد نهائياً فكرة انكار علاقته بالحادث، واكتفى بالتمسك بالقول بأنه لم يكن مسرعاً حين حدثت الحادثة المشؤومة.

كان قد ترك ليلى خطيبته قبل منتصف الليل بساعة، وبدأ يسوق سيارته بهدوء عائداً الى المدينة. . وبعد عشر دقائق تقريباً قرر بينه وبين نفسه ان يطلق لسيارته العنان، فالطريق واسع وطويل ويمتد حوالي

سبعة أميال في خلاء شبه صحراوي، وبالاضافة الى ذلك فهو سائق ماهر يشهد له بالمهارة كل من تيسرت له فرصة مرافقته.

كان المطر ينهمر بغزارة فيصفع واجهة السيارة الزجاجية وينحدر على جوانبها مثل سيول صغيرة تتسابق على سفح جبل صقيل، وكانت الاضواء الهزيلة المتناثرة على جانبي الطريق تبدو كأقمار بعيدة متعبة، ولا يتذكر مسعود بك ما الذي كان يشغل باله في تلك اللحظات ولكنه يذكر تماماً انه شاهد كتلة سوداء ضخمة تحاول ان تقطع الطريق، ثم شاهدها تقف، وقبل ان يكتشف طبيعتها كان قد صار على بعد امتار قليلة منها، وفي تلك اللحظة بالذات تحركت الكتلة مرة اخرى دون ان تعبأ بزعيق السيارة وتبين هو في اللحظة التالية ان تلك الكتلة السوداء لم تكن الا جحشاً صغيراً قاتم اللون ولكن فرصة تفادي الصدمة كانت قد ولت: كانت الأرض مبتلة وكان مسعود بك على يقين بأنه لو ضغط بقدمه المكبح حتى نهاية مداه لانزلقت السيارة وربما انقلبت، وهذا هو السبب في انه لم يبذل جهداً حقيقياً وفضل ان يصدم الجحش بجناح سيارته، ثم يتفادى انحراف السيارة ليكمل طريقه.

ورغم ان مسعود بك له قلب رقيق جداً فإن الحادث هذا لم يحزنه قدر ما احزنته تصرفات ضابط الشرطة في ذلك المخفر الصحراوي، فقد تركه ينتظر في المكتب العاري البارد ساعة كاملة استغرقتها رحلة شرطيين الى مكان الحادث، وحين عادا صرفا نصف ساعة وهما يكتبان تقريرهما عن الحادث باشراف الضابط، وكان مسعود بك جالساً في تلك الغرفة يرتجف ويتميز غيظاً حين دخل الضابط وابلغه بصوت تفوح منه لهجة الخطورة:

- «لقد قتله.»

- «قتلت من؟.»

- «الجحش! . كان المسكين يلفظ انفاسه الاخيرة فأطلق الشرطيان في رأسه رصاصة الرحمة، كسرت الصدمة ظهره وسحقت العجلات ساقيه الاماميتين وحين سقط لم يستطع ان يرفع رأسه من بركة ماء صغيرة خلفها المطر في الطرق. فمضى يبلع ماء موحلاً، وكان من المستحيل على المسكين ان يتنفس وانفه غارق في الماء، ويبدو انه بذل جهداً ليصطاد بعض الهواء في محاولات محدودة النجاح كان يقوم بها بين الفينة والاخرى ولكنه كان قد وصل الى مرحلة ميؤوسة حين وصل الشرطيان، يقولان انك لو نزلت من سيارتك، وكلفت نفسك بعض الانزعاج، وسحبت الجحش الى جانب الطريق لكان من الممكن ان يعيش.. اما الآن!»

ونفض الضابط ذراعيه على جنبيه، وبدا حزيناً بائساً وانشأ يحدق الى مسعود بك تحديقاً متواصلاً محملاً بالاتهام، ولم يستطع مسعود بك ان يتحمل المزيد. كان الغيظ قد وصل به الى ما يشبه الجنون، وربما كانت تلك اللحظة هي من اللحظات النادرة التي خرج بها مسعود بك عن طوره:

وقف دافعاً الكرسي بعنف الى الوراء فامتلأ المخفر الهادىء فجأة بالضجيج، مد يده الى جيب معطفه ودفع الى الضابط بطاقته:

- «تستطيع ان تلاحق هذه السخافة غداً.. هذه بطاقتي.»

الا ان الضابط لم يفك كفيه المعقودتين وراء ظهره، بل انه لم ينظر الى

البطاقة، وقال بهدوء:

ـ «آسف يا سيدي، انا مضطر لاحتجازك حتى الصباح.»

ـ «كلام فارغ.. اقرأ البطاقة قبل ان تحكي.»

ـ «لا تهمني البطاقة.. سأحتجزك.»

ـ «انا مسعود بك..»

ولكن الاسم لم يترك اي انطباع في وجه الضابط الجامد وخيل لمسعود بك ان الضابط لم يسمع به من قبل، ورغم ما في ذلك من اهانة لمسعود بك الا انه، بينه وبين نفسه، تيقن من شيء واحد على الأقل هو ان الضابط لا يعرف عواقب موقفه، وسيتعرف الى تلك العواقب حين يتعرف تماماً الى الرجل الذي يخاطبه. ولكن كل ذلك لم يكن صحيحاً، وذلك ان الضابط، الذي لم تتغير ملامح وجهه على الاطلاق اصر على احتجازه:

ـ «اهلاً وسهلاً مسعود بك، انا اعرفك جيداً، صورك في الصحف كل يوم اذكرها وهي صور حقيقية تشبهك تماماً.. ولكن ذلك لا يغير شيئاً.. لقد قتلته، وانا مضطر لاحتجازك.»

ـ «تذكر انك تتكلم عن جحش!..»

ـ «وان يكن، القانون واضح تماماً بهذا الشأن، انه واضح ايضاً بالنسبة لدهس الكلاب والقطط، وكما تعلم يا مسعود بك فان الجحش اكبر حجماً واكثر قيمة من حيث علاقته بالانسان وبالمجتمع..»

واحس مسعود بك بأنه على وشك الجنون، ولكنه استطاع ان يكبح

جماح نفسه، وببرود ترك البطاقة تسقط من بين اصابعه امام قدمي الضابط، ودار دورة صغيرة متجهاً بخطوات ثابتة الى الباب، وكان على وشك اجتيازه حين سمع الضابط، دون ان يتحرك من مكانه، يقول بهدوء، وبنفس اللهجة الصارمة:

- «انت محتجز هنا يا مسعود بك، وارجو ان لا تضطرني لاستدعاء الشرطة ليضعوك في غرفة مغلقة بالقوة.»

وحين توقف مسعود بك فقط استدار نحوه:

- «صحيح ان هذه الغرفة باردة وعارية وموحشة ولكنها افضل من غرفة الاحتجاز التي اذا شئت فرّجتك عليها.»

وبذكائه المعتاد اكتشف مسعود بك انه قد اصطيد، وان الطريقة المثلى للتصرف هي الطاعة. وكان ما زال مسيطراً تماماً على اعصابه رغم غيظه الهائل فاتجه بهدوء الى حيث استطاع ان يجلس، كان الضابط ينظر اليه بأدب ولكنه كان يستطيع ان يتبين وراء ذلك الوجه الصارم عاصفة من الضحك المكبوت:

- «انت لا تعرف مغبة هذا التصرف السخيف، غداً ستأكل اصابعك ندماً.»

- «ان يأكل المرء اصابعه خير من ان يأكلها غيره.. اذا اطلقتك اكل المسؤولون اصابعي يا مسعود بك.»

- «مسؤولون! مسؤولون وانت تعرف من انا؟»

- «الرجل الذي لا يقهر! هكذا تسميك الصحافة يا مسعود بك،

وانا في الحقيقة معجب بك اشد الاعجاب، ودائماً الفت نظر اولادي الى قصتك.. ودائماً اقول لهم: انظروا كيف استطاع مسعود بك ان يصبح الرجل الذي لا يقهر في كل البلد رغم انه بدأ حياته سائقاً مأجوراً لشاحنة تنقل الحجارة من الجبل الى المدينة.. ان ذلك يحدث نادراً في الحياة يا مسعود بك، ففي عشر سنين استطعت ان تصبح الرجل الأول في البلد، هل تستطيع ان تتصور ماذا يعني ذلك بالنسبة لرجل مثلي؟ بدأت حياتي شرطياً، والرتبة تأتي وحدها، انت تعرف ذلك...»

ولكن مسعود بك لم يجب، بل مر الشريط السريع لحياته امام بصره مثل كل مرة يسمع فيها هذا الكلام: ملحمة من العمل الجبار الذي لا يهدأ، ولكنه يتميز عن سواه في مثل هذه الحالات بأنه كان عملاً شريفاً مفتوحاً امام الناس، ليس فيه بقعة سوداء واحدة.. وفي لحظات قليلة غرق مسعود بك في هذا البحر من الماضي المزدحم المشرف، ولم ينتشله منه سوى صوت خطوات الضابط وهو يغادر الغرفة، وقبل ان يغلق الباب وراءه قال مسعود بك بهدوء، ولكن بكل ما يستطيع الرجل القوي ان يشحن لهجته بالاهمية:

ـ «انني اكره ذلك.. ولكنك ستصبح مجرد شرطي صباح غد، ومن جديد».

وبنفس اللهجة الخطيرة التي اعتادها ضابط شرطة في مخفر صحراوي، اجاب الضابط:

ـ «انت رجل شريف يا مسعود بك، تستطيع ان تفعل ذلك، ولكنك لا تفعله».

- «هذه المرة سأفعله..»

***

امضى مسعود بك تلك الليلة الباردة فوق كرسي الخشب يتميز غيظاً ويرتجف برداً ويملأ رأسه بالخطط، ولا شك انه غفا فوق المقعد، وحين فتح عينيه كانت الغرفة مضاءة بنور الفجر الهادىء، وكانت اكبر صحف المدينة مفروشة الى جانب عتبة الباب، ومن مكانه ذاك قرأ العنوان الكبير في رأس الصفحة «مسعود بك يقتل جحشاً!».

وفي لحظة واحدة ادرك ان الضابط قد بدأ يدافع عن نفسه، وهمس مسعود بك: «المجنون! حسب انني سأنفذ تهديدي» ولكنه ادرك ان الخطوة الاولى سبقت ما يمكن ان يفعل، واحس بأنه قد امتلأ بنشاط محموم مثل كل مرة يعتزم فيها خوض صراع خطير، ولاحظ ذلك بشكل اوضح حين بدأ اتصالاته بالهاتف فانتابه شعور مفاجىء بالخجل، وقال بصوت خفيض: «جحش!» ولكنه لم يستطع ان يسيطر على اعصابه تماماً وهو يشرح لقائد الشرطة تفاصيل ما حدث، واحس بأن وجه القائد على الطرف الآخر من الشريط يتمسح بابتسامة ساخرة مقيتة..

وكان ذلك الاحساس في تلك اللحظة هو البداية فقط، فمنذ عامين وثلاثة شهور ونفس تلك الابتسامة الساخرة المقيتة تطالعه على كل الوجوه التي يقابلها. ولا يذكر الآن ابداً انه استطاع ان يعيش لحظة واحدة من بين لحظات عامين وثلاثة شهور دون ان تكون تلك الابتسامة رفيقاً ملازماً له ولأفكاره وأحاسيسه وتصرفاته.

لقد استطاع مسعود بك ان يتجنب مزيداً من الاحتجاز، بل انه

استطاع ان يتدبر امره فيخرج من حبسه البارد قبل ان تفتح دوائر الدولة ابوابها، ولم ينس وهو يتجه الى سيارته ان يرمق الضابط بنظرة لها معناها، إلا ان الضابط تجاهل تلك النظرة بأدب وفتح له باب السيارة وانحنى له انحناءة خفيفة وهو يقول بلهجته الجامدة المهذبة:

ـ «ارجو ان لا يكون تطبيقي للقانون قد ازعجك يا مسعود بك.»

إلا ان مسعود بك صفق باب السيارة بعنف، وخيل اليه ان هدير المحرك انما هو ضحكات شامتة: ضحكات الضابط والشرطيين وقائد الشرطة ومحرري الصحيفة وآلاف القراء الذين فوجئوا بذلك العنوان الصارخ «مسعود بك يقتل جحشاً!»

ولم ييسر له الناس في اليومين التاليين اية فرصة لنسيان الحادث، اتصل به اكثر من محرر صحيفة ليستوضح، وكان هو يعتزم فعلاً توضيح ما حدث، ولكن الصحف تابعت الموضوع بشكل سبب المزيد من الغيظ له، وكانت العناوين، في الايام التالية، قد انسحبت الى الصفحات الداخلية ولكنها صارت اكثر اغاظة: «قصة مسعود بك مع الجحش.؟»

ووصلت الازمة الى منتهاها بعد اسبوع حين تلقى مسعود بك تبليغاً من المحكمة وقرأ في رأس التبليغ: «المدعي: جحش،المدعى عليه: مسعود بك.»

ولا شك ان مسعود بك كان على صواب حين رفض الذهاب للمحكمة، كان يستطيع ان يتصور حشود الصحفيين والناس تنتظر مشاهدة مسعود بك يدافع عن نفسه ضد جحش مقتول، وقال لنفسه

ان القانون واضح، ولسوف تفرض عليه المحكمة دفع غرامة معينة ربما تزيد قليلاً بسبب غيابه ولكن هذا لا يهم طالما انه سيضع نهاية للاشكال كله..

ولكن المحكمة رفضت ان تبت القضية دون حضور المدعى عليه، وكان موقف القاضي حرجاً رغم صداقته لمسعود بك ورغم معرفته لنفوذه، فالقصة اصبحت معروفة لدى جميع الناس ثم ان هذا كله قد يؤدي بالمحكمة الى مأزق.

والواقع ان مسعود بك يعترف بينه وبين نفسه بخطأين ارتكبهما في هذا المضمار، الاول انه لم يشأ ان يتراجع عما قاله لضابط المخفر بعد الحادث من انه لم يكن مسرعاً، والثاني انه واصل باصرار الامتناع عن الذهاب للمحكمة، وقد سببت هاتان النقطتان تعقيداً جديداً في القضية: فالمحققون يقولون ان كافة الادلة تشير الى ان سرعة السيارة وقت الحادث لم تكن تقل عن مئة كيلومتر في الساعة، وكشفت الصحافة، من ناحية اخرى، ان اصرار مسعود بك على عدم الذهاب للمحكمة يحمل طابع التحدي، وبانتظار حل هذين الاشكالين واصل القاضي تأجيل القضية مرة بعد اخرى، حتى مرّ عليها عامان وثلاثة شهور.

والذي كان يغيظ مسعود بك اكثر هو ان احدى الصحف عقدت مسابقة بين قرائها كان عنوانها: «من يكسب.. مسعود بك ام الجحش؟» وافردت لآراء القراء ركناً يومياً اثبت انه ركن مقروء اكثر من الاركان المتعلقة بالاخبار السياسية.

وبعد مرور وقت قصير اقترن اسم مسعود بك بالجحش اقتراناً

عجيباً، وصارت اية واحدة من الكلمتين توحي فوراً بالكلمة الاخرى، ولا شك ان هذا بالذات كان اكثر ما يضايقه ويخرجه عن طوره. والشيء الوحيد الذي كان يضايقه اكثر من ذلك هو اكتشافه فجأة، وبعد مرور عامين وثلاثة شهور على ذلك الحادث المشؤوم، انه ليس هناك أي مخرج من المأزق التعس الذي وضع نفسه او وضعته الاقدار فيه.

وقد اورثه هذا الاكتشاف كآبة لم يعرفها في حياته، حتى عندما كانت ساعات العمل المرهقة في قيادة شاحنة محملة بالصخور تسد امام عينيه مسالك البصر، وفجأة توصل الى اكتشاف آخر، وهو انه قضى طيلة عامين وثلاثة اشهر محبوساً في نطاق محكم الاغلاق من حياة يملؤها شبح اسمه جحش، وجحش قتيل ايضاً، وان كل الظلال التي كان يشاهدها في مكتبه وفي منزله وفي الطريق، كانت تتبدى له اشكالاً مختلفة الحجوم لجحش اسود صغير له اذنان كبيرتان، وان ذلك كان يحدث كل لحظة طوال عامين وثلاثة شهور..

ولم يستطع مسعود بك ان يتخلص من فكرة ملأت رأسه فجأة: لقد تبدت له بادىء الأمر فكرة سقيمة ولكنه، في مدى ساعتين فقط، اعتادها تماماً متقيناً انه ليس ثمة اي مخرج عداها، ولم يكن بحاجة الى اي دراسة للتفاصيل حين قرر ان ينهي حياته ويضع حداً بذلك، لعامين وثلاثة شهور مزدحمة بالشقاء والتعاسة.

فقط حين قرّ قراره ذاك عاودته احاسيسه التي افتقدها طوال ذلك الزمن، منذ الحادث المشؤوم ولأول مرة منذ عامين وثلاثة شهور فتح باب منزله دون تردد، ومشى عبر الممر بخطوات ثابتة وكانت الجدران

تبدو حواليه نقية، ناصعة، ليس في تعاريجها ولا في رسومها بسمات مكتومة ولا ترتسم فوقها ظلال او اشباح.

بيروت ـ ١٩٦٢

رأس الأسد الحجري

كان الفقر، في تلك الفترة يجتاح حياتي كموجة ثقيلة تحمل معها رملاً وحصى . . ورغم ذلك فلقد توصلت الى إقناع نفسي بأنها موجة هادئة تماماً، وانها وان كتمت انفاسي، الا انها فعلت ذلك بكثير من الهدوء والصمت . .

كانت الديون قد اغرقتني ايضاً . . وكان هذا بالذات أسوأ ما في الأمر . . فالمحرر الآخر الذي يعمل معي في المجلة يطالبني كل لحظة بواسطة زوج من العيون الصغيرة بسبع ليرات وخمسة واربعين قرشاً . . وكان قد دفع هذا المبلغ للمطعم الصغير القذر الذي كان خادمه يحمل الى مكتبي كل صباح صحناً من الفول مع البصل . . وكانالبقال الذي تقع دكانه على ناحية رصيف بيتنا يطرح سلامه كل صباح بأعلى صوت تستطيع ان تصدره حنجرته المدفونة عميقاً في عنق يشبه عنق الثور، يفعل ذلك ليذكرني بسبع وعشرين ليرة على الأقل، مسجلة في دفتره الكبير اثماناً لعلب الدخان الرخيصة، والأرغفة التي كانت تؤخذ، بين اليوم والآخر، مع قليل من الزيتون أو الجبن، أو علب اللحم المحفوظ في احسن الأحوال . .

هذا كوم قائم بذاته، اما الكوم الاثقل فقد كان ذلك الصديق النبيل، الذي اعطاني، ذات يوم، خمسمئة ليرة دفعة واحدة تاركاً أمر

تسديدها لظروف احسن. . ولما كنت قد بدأت اشعر بأن ليس ثمة ظروف أحسن تلوح من قريب او بعيد، احسست بوطأة الدين تعقد لساني عن طرح السلام كلما تصادفنا في الطريق او تعترض طريقي اذا ما اضطرتني ظروف غادرة العبور امام مكتبه. .

بدا لي العالم، ثمتئذ، عالماً قميئاً صغيراً ليس فيه الا الظلمة والظلم، ولا تحده الا دكان البقال السمين، والا طاولة المحرر العجوز، والا مكتب الصديق النبيل. . اما الحد الرابع، فلقد كان بلا شك نافذة للهروب: ذلك هو عامر، الصديق الذي كان يبرز دائماً في اشد ساعات الضيق ليدعوني لتناول فنجان من القهوة في مطعم على شاطىء البحر، وليفتح اذنيه كي اصب فيهما يأسي وشتائمي، وليهز رأسه قائلاً مع رشفة القهوة الأخيرة ان الايام القادمة لن تكون اشد بؤساً. .

وعامر هذا شاب طيب في مجمله، طيب داخل الحدود التي كنت اتعامل معه فيها. . فثمة ما كان يباعد بيننا في كثير من الاحيان، ولذلك فقد كنا نتلافى العبور الى تناقضاتنا، لقد ولد عامر من اب ايطالي وام فرنسية، وكان الاثنان يعملان في السلك السياسي هنا منذ زمن بعيد حينما تعارفا، واذا كان قد اتفقا في كثير من الامور فان الشيء الأهم الذي جمعهما هو حبهما للشرق، ورغبتهما في صرف حياتهما فيه. .

وهكذا فحينما ولد صبيهما الأول سمياه عامراً، وأنشآه على أنه عربي، وحينما علماه، علماه العربية اولاً، ولذلك فانه كان يجيد هذه اللغة اكثر مما كان يجيد الفرنسية والايطالية. .

ولكن الذي حدث فيما بعد كان على عكس تصور الوالدين المتصوفين، ذلك انه حين بلغ عامر مطلع شبابه، كان الحنين الى الوطن

قد فتك بوالديه، ورغم ان الوالدين لم يبوحا بهذا الحنين لبعضهما، الا انهما ما لبثا ان شعرا به يعطل عليهما هذا الانسجام الهادىء بينهما، من ناحية، وبين الشرق من ناحية اخرى، فقررا، ذات يوم، ان يسافرا الى بلادهما، فيطوفا فيها قبل ان يعودا الى الشرق من جديد..

كنت في تلك الفترة اعرف عامراً معرفة طالبين يقتحمان معاً امتحانات صعبة، ويربطهما ذلك الرباط الذي يشد بين فرسي رهان حين يطالان حبل الشوط الاخير بعنق واحد، ولذلك فقد افتقدته وافتقدني حينما افترقنا، ومرت سنون عديدة، كدنا ننسى بعضنا خلالها، قبل ان يعود مرة اخرى فيزورني ليلة وصوله مهندساً مختصاً بالطيران والمحركات الصعبة ويشاهدني صحفياً صغيراً ألاحق الاحداث بحماس او بفتور، وأغضب وارضى صاعداً نازلاً في اعمدة المجلة.

هنا، لمس كل منا ان الآخر قد ابتعد عن الاول، وحينما قلت له ذلك بعنف قبله بهدوء واقترح ان نظل بعيدين عما يمكن ان يفصل بيننا، فكل منا يحتاج الى الآخر احتياج الزوجين العجوزين لمجموعة صور حبهما المبكر...

كان عالم عامر عالماً مرتباً نتيجة لدراسته الفنية الطويلة. وبقدر ما كان أبواه يرتبطان بهذا الشرق كان هو يرتبط بالغرب. وقال لي في مرات عديدة ان ابويه كانا نغمة شاذة في سيمفونية العائلة، وانه هو قد ارتد بالنغم الى الاصول..

ورغم ذلك فقد بقي عامر نافذة الخلاص في ذلك النطاق المحكم من الحصار الرهيب المضروب حولي، وكنت اغسل كآبتي الكبيرة في فنجان

القهوة الصغير الذي كنا نشربه معاً بين الفينة والاخرى على شاطىء البحر.

لم يحدث قط ما كدر علاقتي بعامر، كان يقبل كل شيء بصدر رحب... لم يحدث ما كدر نلك العلاقة إلا يوم ان شكوت له حالتي المؤسية، وطالبته باقتراح يجعلني قادراً على فك نفسي من الطوق الرهيب..

- «حسناً لماذا لا تقنع والدك ببيع بيتكم؟ ها؟ انه ملككم. صحيح انه بيت قديم، إلا انه سوف يجلب مبلغاً كافياً من المال يسدد ديونك وديون ابيك، ويزيد رأس مال مجلتك، وقد يرسلك للاختصاص في اوروبا».

لم أُجب، فقط نظرت الى البحر كي اكتم بداية نقاش كنا اتفقنا ان لا نثيره.. ورغم انني كنت احبس كلاماً كثيراً في حنجرتي إلا انني لم استطع الا ان ابدأ بالنقر على الطاولة بشيء من العنف. كان لا بد من ان افعل كل شيء اي شيء.. تلك فكرة كانت موجودة في رأسي، وانا اعرف ان والدي لن يجد فرصة اروع من ان يكسب موافقتي على بيع البيت العتيق، فذلك سوف يحل له كثيراً من المشاكل الى الابد، اعني الى ابده هو، ولكنني لم افكر قط ان تصل الموافقة الى لساني، بل إن ابي نفسه لم يكن ليجرؤ ان يجرها مني، او يسألها او حتى يستعطفها.. كان بيع البيت العتيق نقطة ضعفي الرهيبة..

وفي لحظة واحدة تكومت في عيني الدموع، وعبثاً حاولت ان اردها. لقد أحسست فجأة انني على وشك ان ابكي كالطفل فرفعت صدري عن الطاولة وتنفست ملء رئتي لأسقط الى صدري ذلك الشيء

الذي اعترض حنجرتي كسكين عريضة. . ولكن ما ان فعلت، حتى دارت في صدري تلك الرائحة العجيبة التي تفوح دائماً وبلا سبب في باحة دارنا: مزيج من الرطوبة القديمة، ورائحة شجرة ياسمين، وعبير من اوراق شجرة البرتقال ذات الساق الطويلة. . مزيج خاص وغريب تنشقته منذ درجت في تلك الباحة طفلاً، وحين شببت فيها رجلاً، رائحة تملأ الأنف والصدر وتتمشى في العروق كأنها الارتواء، يا طالما تنشقتها وانا اتمطى في غرفتي التي تطل على الباحة بثلاثة شبابيك عالية من زجاج ملون، وفي صدر الباحة كانت بركة الماء الصغيرة تحت الدرج الخشبي تفور مياهها ليل نهار من فم اسد حجري له رأس كبير، فتحمل معها رائحة النهر والبرية والبساتين. . وكان الصوت يأتي، عبر الزجاج الملون والشبابيك العالية، رامياً برخاوة مزيجاً من تدفق الماء، وحفيف شجرة البرتقال، واصوات الجيران البعيدة تبدأ يومها الجديد. ثمة عصافير كانت تختبىء بين الأغصان فلا تطالها إلا عيناي، وكان ابي يقول انها عصافير تعرف شجرتنا كما نعرفها نحن، وانها من اهل الدار لا تمس ولا تطرد ولا تخوف. .

دارنا. . كانت باحتها المكشوفة مفروشة ببلاط كبير من صوان بني، وكان الدرج الخشبي قد اهترأ من وسطه وزال دهانه، الا انه كان قوياً وصالحاً. . وغالباً ما كانت الأوراق الجافة تتساقط اثناء الليل فتفرش بعض الساحة البليلة، وكنت اسمع اصوات تكسرها الناعمة في ابكر الصبح حينما كان ابي يعبر الباحة ذاهباً الى السوق. . وكانت امي تجمعها. . فاسمع صوت كنسها يعبر إليّ منهكاً بينما تظل الشجرة تنمو، والياسمين يزهر، والأسد يثرثر. . ومقابل غرفتي كانت تقبع غرفة

اخرى واسعة، فيها سجادة كبيرة زفت الى الدار مع أمي. . وكان السقف عالياً منقوشاً بالخشب، وكانت ستة شبابيك صغيرة، شباكان في أعلى كل حائط، مقسم كل واحد منها الى نجمة ذات عشرة رؤوس، ومسدودة بالزجاج الأزرق والأحمر والأصفر.

- «لا تتكلم عن بيتنا!».

***

قلتها فجأة، وأحسست في الوقت ذاته انني قد انتصبت واقفاً، لم ادر متى حدث ذلك وكيف، ولكنني ما ترددت قط، اخذت سجائري الرخيصة وساقتني خطوات واسعة الى الشارع، وطوال الطريق الى البيت كانت الرائحة الغريبة تزكم انفي. . وكنت احسها تموج في صدري كطوفان صغير ماتع. . اتكون هي الذكريات التي تجرها تلك الرائحة القاسية؟.

كم هي قاسية وماتعة معاً! كيف يمكن لأبي ان يفكر بالتخلي عن البيت الذي عاش فيه اكثر من ستين سنة؟ كيف؟ الا تملأ صدره تلك الرائحة؟ الا يحس اصوات تلك الاوراق الجافة وهي تطوف في عروقه كلما دعست خطواته المنهكة صوان الباحة؟

- ولكن يا بني! متى سوف تسدد دينك واسدد ديني؟ ما الذي يهمك في هذا البيت العتيق الموشك على السقوط؟ معاشك لا يكفي صرف يوم واحد. . اختك ما زالت في ابواب دراستها وانا عاطل عن العمل. . فمتى تتوقع ان نسد الديون؟ لماذا لا نبيع البيت ونشتري شقة صغيرة تكفينا، ونعيش. . لماذا لا تستمع إليّ وتعترف بأن. . .

ولكنه ما كان يستمع اليه قط، كان يدور على عقبيه ويمضي، وهو يعرف ان حاجبي والده الاشيبين يرتعشان غضباً وحزناً، يفتح الباب فتلامس كفه المقبض النحاسي المدور، ويئز الباب، ثم يمضي فيخفق الدرج بخطواته، ويجتاز الباحة ثم يجر الباب الثقيل المرصع بالمسامير ذات الرؤوس العريضة فيتلقاه الزقاق والشبابيك المتكاتفة والصبية يكتبون بالطباشير فوق الجدران المقشورة، والشباب يتحادثون والعجائز على كراسي القش الواطئة امام ابواب البيوت، وبضعة دكاكين قديمة فيها كل الأشياء مكومة فوق الرفوف، ثم الشارع العام، والبقال والديون والمحرر والصديق النبيل وخمسمئة ليرة لا يعرف شكلها ولا كيف تصنع.

كيف حدث ان صرف خمسمئة ليرة في شهر واحد؟ كيف اجازت له نفسه ان يفعل ذلك وهو يتقلب في الجوع والحرمان والفقر والديون؟ كيف؟

كان يقول له عامر:

- «تتصرف كأنك حاتم وانت تأكل فولاً منذ اشهر، لماذا كل هذا الغباء؟ هل انت مسؤول عن العالم؟

وكان هو يقول بينه وبين نفسه او لعامر:

- «سمها عادة قميئة، لا يهمني هذا الهراء.. ولكنني اذا وجدت رجلاً اجنبياً في الطريق، قطع نصف العالم فوق دراجة بخارية، ثم وصل الى هنا معدماً فعلي ان استضيفه.. لست استطيع إلا ان افعل...»

- «لماذا؟»

- «هذا سؤال سخيف!»

في ذلك اليوم جر الرجل الاجنبي ودراجته المغبرة الى بيتهم واستضافه في غرفته دون ان يعنى بالتفاصيل..

ولقد وقف الشاب الاجنبي مشدوهاً في ذلك البيت الواسع الهادىء، وحينما استطاع لسانه ان يتحرك سقطت كلمة واحدة لاهثة:

- انه جميل!

وأحس هو بالفخار. . ليس يدري كيف، ولكنه دار حول نفسه ينظر كأنما للمرة الاولى الى كل الاشياء الصغيرة التي لم تعد صغيرة قط، وقال له ابوه:

- يا بني: قم بواجبك تجاه الرجل..

وقالت له امه:

- سوف اعد له سريراً في غرفتك.. قل له ان لا يكلف نفسه عناء التفتيش عن مطاعم، سوف يأكل هنا..

واستدارت امه، ثم قالت قبل ان تعبر الباب:

- سوف تكون حريصاً على اشعاره بأنه ليس عبئاً على فقرك.

ولم يحس الاجنبي لحظة بأنه عبء.. لقد أحس وكأنه في بيته، بل انه قرر ان يبقى لفترة أخرى ينط هنا ويصور هناك ويسوح هنا وهناك، اما هو فقد كان كل ما يهمه ان لا يضيع الشاب فقراً في المدينة الغريبة..

عرف فيما بعد أنه شاب من لندن، ويدرس في احدى جامعاتها، وأنه قرر ان يزور الشرق حينما قرأ عنه بعض الحقائق وكثيراً من الأكاذيب. . ولما كان توقه جامحاً ونقوده قليلة فلقد قرر ان يعبر كل اوروبا فوق دراجة نارية، ليعيش على ما تهيؤه له الظروف والاقدار واخلاق الناس ومواطنوه السائحون او السياسيون. . وحينما حط رحاله في الشرق قرر ان يغير رأيه وذلك بتأليف كتاب جديد يمحو فيه الأكاذيب ويزيد من الحقائق. . اما هو، فلقد كان سعيداً بأن يتوصل جيمس الى هذا القرار، وكان يحس ان البيت الكبير هو الذي غير جيمس. . وان اوراق كتابه انما هي اوراق شجرة البرتقال هذه التي تسبح كل صباح في عينيه.

كيف تتعقد الامور دفعة واحدة؟ الم يكن جيمس وحده عبئاً كافياً؟ كأنما القدر كان مستعجلاً امر اغراقه في الديون فأراد ان ينتهي من هذه المهمة في شهر واحد. ،لقد أحس هو ذلك حينما دخل مكتبه ذات صباح فوجد فتاة شقراء تجلس في مقعده:

ـ «اسمي روز، انكليزية، صديقك محمود يدرس معي في الجامعة تصله مجلتك بانتظام، وهو بالمناسبة يهديك تحياته. .».

وصمتت الفتاة هنيهة، ثم قامت عن المقعد ومدت له يدها فصافحها وتابعت:

ـ «لقد نصحني ان اتصل بك حينما عرف انني سوف ازور الشرق في هذه العطلة، قال ان بيتكم الشرقي سوف يهمني ثم انك ـ هكذا قال محمود ـ لديك من الفراغ ما يسهل عليك مرافقتي لايام قليلة كي استطيع رؤية اهم ما يستحق ان يشاهد. .»

سوف تقول له امه ان طعام الواحد يكفي اثنين، وطعام الاثنين يكفي اربعة، وغرفة اختك واسعة وبيت الاسد لا تخلو منه عظام.. وسوف تقول له اخته: انها سوف تتسلى وتتعرف عبر روز على عالم لا تعرفه ولن تعرفه، وسوف يقول لنفسه: لتترافق مع جيمس وستوفر عليّ عناء الرفقة... وسوف يقول ابوه: فتاة دخلت بيتك تكسب حرمته وتصير مثل اختك.. وسوف يقول جيمس: رفقة جميلة في بلد جميل.. وسوف يقول عامر: عرفني على هذه الحسناء فأوفر عليك مصاعب اطعامها..

ولكنه ما شاء لها ان تقع في حبائل عامر.. لقد دخلت بيته فصارت لها حرمة اخته، وعامر رجل لحظة يعبر متعته بسيارة وبسمة وكذبة ثم تصير وعوده قبض ريح، كم من فتاة عرفها تعرف عامراً، وكم سمعه يحكي عنها مغامرة وسمعها تحكي عنه حباً..

ثم ماذا؟ ها هو عامر ما يزال يقفز من فتاة الى اخرى بسيارته الصغيرة الحمراء.. يبكي على ركبتيه سائلاً حين يوقع، ويبكي على ركبتيه كاذباً حين يترك.. فتاة تروح وفتاة تجيء وعامر يجمع بين تذكاراته الصور، وينشرها بين يدي رفاقه حينما يعلو حديث المرأة او يخفت حديث الرجل..

لما عاد في المساء تلقفه جيمس في باحة الدار، وصاح وفي عينيه الزرقاوين تموج المفاجأة:

- «أتدري ما حدث؟ لقد اكتشفنا انني وروز من حي واحد في لندن.. ليس هذا فقط، بل ان جدار بيتها يفصله اقل من مئة متر عن جدار بيتي. هل تتصور ذلك؟».

يتصوره؟ انه لا يصدقه ! كل عمره في هذا الزقاق مضى بين جدران اللحم والحب والجيرة. . هل من المعقول ان يتصور زقاقه دون ابي شاكر وكرسيه على الناصية، ودكان فهمي وهو فيها يطرح سلاماً ويرد سلاماً؟ هل يوجد زقاق دون كل هؤلاء الذين ارتفعت اكتافهم معاً؟، والذين مزقوا كل شبر تراب في الزقاق معاً، الاطفال والأبواب، والنوافير، والنساء، والافراح والأحزان والمشاجرات والمصالحات؟ . .

وحينما نظر الى روز هزت رأسها وانساحت الكلمات بطيئة لاثغة عبر ابتسامة دقيقة:

- «اليس عجيباً فعلاً ان يلتقي الجاران في الناحية الاخرى من العالم للمرة الاولى؟»

واقترب هو منهما وسأل: تعنيان انكما تعارفتما هنا فقط؟ تعنيان انكما لم تكونا تعرفان بعضكما في بلدكما؟

وقالت روز: «بل انا لا اذكر انني لمحته ولو مرة واحدة طوال الاثنتين والعشرين سنة الماضية. . . واعتقد انه لا يذكر ايضاً. . .»

اجتازهما، لم يكن يستطيع ان يكون اي شعور معين، كان تعباً وكانت الديون قد بدأت تتراكم، وابوه قال انه لم يعد يجد من يدينه، وقالت امه ان اكرام الضيوف واجب ولو باع واحدنا جلده في سوق المزايدة. . وحينما وصل الى منتصف الدرج الخشبي التفت اليهما، واحس فيما كانا ينظران اليه انه كان فظاً حينما لم يفرح بما فرحا به، فوقف. . واعتصر ابتسامة عريضة:

- «واذن ستترافقان في مجاهل المدينة. . ان حظكما رائع، ذلك ان

عملاً متواصلاً ينتظرني طوال الاسبوعين القادمين، واخشى ان اقصر عن رؤيتكما بشكل كاف..».

وهتف له عامر ليقول بأن ضيافة اثنين دفعة واحدة امر منهك لانسان فقير يكاد لا يجد ما يأكله، وانه سوف يكون راضياً لو تبرع له بواحد منهما. الفتاة الشقراء بوسعها ان تعيش في جو عائلته وجو اختيه اللتين ستفرحان بها فرحتهما بلقاء مواطنة بعيدة.

ولكنه رمى الهاتف دون ان يقول لا او نعم.. وقالت له اخته: ان الفتاة اللندنية لن تترك البيت الى بيت عامر حتى ولو قيل لها ان تفعل.. وسألها هو:

- «لماذا؟ تعتقدين انها تفضل بيتنا الشرقي العتيق على كل ما سوف يمنحه عامر الغني لها؟».

- «كلا، لست اعتقد ذلك، ولكنني اعتقد ان روز لن تغادر البيت اذا لم يغادره جيمس، انهما عاشقان!» - «هراء فارغ - ..».

- «قررا ان يقولا لك ذلك اليوم.. لقد قالته لي..».

- «عشرة ايام فقط اوقعتهما في حب بعضهما؟ اي هراء!».

- «عشرة ايام فقط، نعم، ولكنهما صرفاها معاً يوماً يوماً، منذ ابكر الصبح حتى منتصف الليل.. الست تعتقد انها كانت فرصة كافية؟».

- «لا اصدق!».

ألا تصدق؟ كم مرة رأيتهما يحدقان معاً الى شجرة الياسمين

ويتهامسان في ظلها؟ كم مرة سقاها في كفيه من ماء البركة وكم مرة رأيتها تسقيه؟ اما خطر لك قط ان تصدق حينما تراهما يذوبان في شمس الصباح معاً وهما يتعانقان جالسين فوق خشب الدرج؟ كم مرة زرع الياسمين في شعرها وكم مرة رأيتها تحنو على ياسمينها؟

انت ما صدقت لأنك ما اردت لكآبتك ان تزداد امام فرحهما، وحينما قالا لك ذلك ببساطة كنت تعرفه ولكنك ما أحسست بأن كآبتك قد ازدادت او نقصت. . قلت لنفسك ان هذا من شأن البيت. . . وان هذا يجب ان يحدث. . . ثم قالت لك روز:

ـ «انا اعرف ان ذلك سوف يسبب لك حرجاً أمام والديك. . ولكنك اذا اردت ان تقول لهما ذلك، فقل لهما ايضاً اننا سنتزوج. . »

وسأل متعباً: ـ «وهل ستتزوجان فعلاً، ام انكما تريدانني ان أكذب؟»

ـ «سوف نتزوج فعلاً. . »

وتزوجا. . أقام لهما في بيته حفلاً صغيراً خدم فيه الضيوف القلائل كالصبي، وودعهما الى باب بيته حينما انطلقا عائدين الى بلادهما بعد ايام. .

وعاد البيت الكبير يمطر ورقاً ناشفاً تكسره خطوات ابيه الموهنة كلما عبر ساحة الصوان في ابكر الصبح ذاهباً الى السوق. .

* * *

ـ «لا تتكلم عن بيتنا! لا تتكلم!. »

مرة اخرى قلتها بصوت عال وانا ادخل المفتاح الكبير في قفل الباب الخشبي المنقوش بالمسامير. . كانت العتمة قد اسكتت الشارع إلا من اصوات النوافير المخنوقة التي تثرثر وراء ابواب ذلك الزقاق البعيد. . دورت المفتاح ودفعت الباب ثم دلفت الى باحة الصوان. . كان الضوء يسيل من نوافذ غرفة اختي فيغسل الباحة بنور كأنه نور قمر مكتمل. . مشيت بطيئاً فوق الاوراق الناشفة واحسست بالصوت المتكسر يعبر مطوفاً في عروقي ويموج كأنه النغم. . وقفت: شجرة الياسمين الصغيرة ما زالت تتكىء هناك مسقطة شموعاً صغيرة من الزهر الابيض، تنشقت عبيرها فافترّ في صدري دوامات صغيرة من الحياة. . اية رائحة هذه كأنها. . كأنها ماذا؟ اتكون الروح التي يحكون عنها؟ صعدت الدرج فخفق تحت خطواتي كأنه ينبض، لامست الكرة النحاسية في مقبض الباب ثم دلفت الى غرفتي. .

ما كان من المعقول ان انام: اي عالم ضيق صغير يسلب المرء نومه. . اي عالم صغير محدود ببقال ومحرر وصديق احسن ما فيه انه اقل سوءاً من البقية؟ اي عالم لا نافذة فيه سوى هذا الصدر الذي يتنفس رائحة البيت كما تتنفس السمكة الماء؟. . اي عالم صغير يقف كله ضارباً في وجه بيتنا الكبير؟

ومن شباك غرفتي دلف شعاع الصباح فغسل الصمت بنوع سحري من النغم. . ما زالت الشمس تتعرف الى بيتنا اول ما تشرق. . ما زالت شجرة الياسمين تمطر عطرها فتروي صوان الباحة. . ما زالت العصافير تسكن الى جوار البرتقال لا تطرد ولا تمس ولا تخوّف. . وما زال ابي يهبط سلم الخشب فيخفق تحت خطواته حانياً. . وما يزال عروسان في

الطرف الآخر من الارض يغتسلان كل صباح بماء يتدفق من بين انياب
اسد حجري موجود في بيتنا. . .

بيروت ـ ١٩٦١

العروس

عزيزي رياض،

لا شك انك تقول الآن انني قد جننت، فهذه ثاني رسالة أكتبها لك في يوم واحد ولكنني في الواقع اكتب لك هذه الرسالة الآن كي اوضح لك امراً، لقد اكتشفت انه محض جنون ان اكتب واقول لك: ابحث معي حيث انت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا اعرف اسمه، ولكنه يلبس بدلة خاكية عتيقة، ويلوح لأول وهلة كأنه مجنون.

ماذا يمكن ان تفهم من هذا كله؟ لا شيء طبعاً، فالمرء يصادف في اليوم الواحد، إذا ما سار في الطريق، مئة رجل يحملون هذه الصفات، فأي واحد منهم تراني أقصد؟

انني على يقين انك ستكتشفه بنفسك، فهو شيء آخر، متميز. . . كيف؟ لا استطيع ان اقول لك فأنا نفسي لا اعرف ولكن يخيل اليّ الآن انني حين شهدته لأول مرة كان محاطاً بما يشبه الضوء، نعم، كان محاطاً بشيء يشبه الغبار المضيء، واعترف لك انني لم اتأكد من ذلك تماماً حين استوقفني لحظة واحدة في الطريق، إلا انني اكاد اكون متيقناً الآن، ان ذلك الرذاذ المضيء الذي كان يحوط جسده الضخم هو الذي رسّخ صورته في ذهني، وإلا كيف تفسر انني ما زلت اذكره، وما زال يلح عليّ، من بين مئات الرجال الذين يقابلهم الانسان في الطريق كل يوم

ثم يذوبون من رأسه وينعدمون.؟

ورغم ذلك فأنا اعرف، هذه اللحظة، انك ما زلت تعتقد انني شبه مجنون، فحتى الآن لم يتضح اي شيء، وما زلنا حيث كنا في الرسالة الاولى: ابحث معي حيث انت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا اعرف اسمه، ولكنه يلبس بذلة خاكية عتيقة ويبدو لأول وهلة كأنه مجنون.

كل الذي اضفته لهذه الصفات تلك الصفة المعقدة الجديدة: انه محاط بشيء يشبه الغبار المضيء!

معك حق، ولكنني اكتب لك هذه الرسالة الثانية في يوم واحد لتعرف القصة بكاملها، ذلك انني رأيت انه صار من حقك، وقد طلبت منك مشاركتي في البحث عنه، ان تعرف ما اعرفه.

لست اذكر بالضبط متى رأيته لأول مرة، ولكني اذكر تماماً كيف رأيته: مثل إنسان ضيّع شيئاً كان يسير محنياً بعض الشيء، بكفيّن مفتوحتين متحفزتين، وعينين تنقبان وجوه الناس كأنهما محراثين عتيقين، لقد بدا لأول وهلة وكأنه مجنون، وحين مرّ بي نسيته ولم اذكره إلا حين رأيته مرة ثانية: اقتلعتني عيناه فجأة واحسست نفسي أطوف فوق موجة تستعصي على الرؤيا، ولست ادري الآن ما إذا كنت انا الذي ذهبت اليه مسوقاً بذلك النداء العميق المنبعث من عينيه كتيار لا يقاوم ام انه هو الذي جاء اليّ، وعلى اي حال فقد وضع كفه الكبيرة على كتفي وسأل:

ـ هل رأيتها؟

ـ رأيت ماذا؟

ـ العروس!

وطبعاً تيقنت لحظتذاك انه مجنون، وان ما انتابني امام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب اي انسان يجد نفسه هدفاً لعيني رجل مخلوع عن العالم والمعقول، ولذلك اخترت الهروب الاسهل فقلت له:

ـ كلا، لم ارَ العروس...

وعندها سقطت يده من تلقائها الى جنبه واستدار، إلا انني سمعته يقول، كأنما لنفسه:

ـ كلكم تقولون هذا، منذ عشر سنوات.

وحين ابتلعه الزحام، يا رياض، شعرت بأن جسده الضخم كان محاطاً بذلك الشيء الذي يشبه الغبار المضيء، كما رسمه فنانو عصر النهضة حول جسد الإله وهو يقدم عونه للفقراء، على بطاقات الأعياد التي كنا نتلقاها معاً.

وعبثاً حاولت اللحاق به: ان مثل هذه الأمور لا تحدث إلا كلمح البصر، لقد نقبت الشارع صعوداً ونزولاً، قابلت مئات من الرجال الذين يشبهونه تماماً، ولكنه هو نفسه كان قد اختفى! عنه، ابحث الآن، وعنه ايضاً أطلب منك مشاركتي البحث، اعرف انك تبعد عن هنا أكثر من الف ميل، ولكن ما الذي يمنع ذلك الرجل ان يسير، محاطاً بذلك الضوء المجهول اكثر من الف ميل وهو يبحث عن العروس؟

***

قبل أن اسألك سألت غيرك، لم ألجأ اليك إلا لأنني، منذ رأيته، ألجأ الى كل من أعرفه، استوقف كل من تربطني به أدنى علاقة وأسأله عنه. واصارحك القول يا رياض، لقد مضى بي الامر الى ابعد من ذلك.

ذات ليلة قلت لنفسي: اذا كان ذلك الرجل قد دأب على سؤال الناس عن العروس منذ عشر سنوات، كما قال، فإن الشيء المؤكد تماماً ان كثيراً من اولئك الناس الذين سألهم، ينتابهم الآن ما ينتابني. وكنت اسير ذات يوم في الطريق حين التقت عيناي عيني عابر لا أعرفه، ودون ان أعرف ما الذي انوي عمله مضيت الى الرجل فاستوقفته، وضعت يدي على كتفه وسألته:

- هل رأيت العروس؟.

سمني مجنوناً ولكن هذا الذي حصل، وقد استطعت، عن هذا الطريق ان أعرف الكثير عن الرجل، وعن «العروس» الضائعة، الا انني ما زلت غير قادر على التخلص من تلك القسوة المجهولة التي تدفعني نحو عيون العابرين لأسألهم عن العروس الضائعة.

الآن دارت الدورة، او انا الذي درتها، لست ادري، ولا بد من ان أعود الى نقطة البدء، الى ذلك الرجل المحاط بما يشبه النور، والذي من شفتيه وعينيه وتحت كفه الثقيلة، سمعت ذلك السؤال لأول مرة في حياتي، نعم، يا رياض، لا بد لي من رؤيته... فلدي أخبار جديدة عن العروس!

***

كان من قرية «شعب» شاباً لم يكن قد ضيّع شيئاً بعد، ولكنه لم يكن

عند ذاك قد وجد أي شيء أيضاً.

لا بد ان قصته قد بدأت في يوم ما من أيام حزيران الأولى عام ١٩٤٨، كان القتال الدموي قد استمر دون انقطاع طوال اكثر من ستة أشهر، وكان هو - وانا ما زلت اجهل اسمه - سيّد الذين يندفعون الى القتال، هجوماً كان ام نجدة ام دفاعاً، الا انه كان يشترط ان يعرف موعد العمل قبل بدئه بساعتين على الأقل، كي يكون امامه متسع من الوقت للتفتيش على من يقبل ان يعيره سلاحاً، بندقية خديوية، او انكليزية، او حتى قنبلة يدوية.

وكانت الامور، على هذه الشاكلة، مقبولة عند كافة الاطراف،فغالباً كان يأخذ معه الى الرجل الذي ينوي ان يستعير منه سلاحاً رفيقاً يتعهد أمامه بأن يعيد السلاح الى صاحبه اذا ما مات صاحبنا اثناء العمل، كان حريصاً على ان يتعامل معاملة مصارف محترمة، رغم انه لم يشهد في حياته مصرفاً محترماً او مصرفاً، وهكذا فانه لم يواجه، طوال تلك الشهور الستة مشكلة حقيقية في هذا المجال، ولذلك لم يفكر بالحصول على سلاح خاص، وربما امتنع عن التفكير بالحصول على ذلك السلاح الخاص بسبب عجزه عن شراء سلاح.

لم اعرف بعد من الذي زرع في رأسه، في احد تلك الايام الاولى من حزيران، ان عليه الحصول على سلاح، وكان هذا الرأي سليماً تماماً، فقد تركز القتال بصورة جادة في الجليل، والقى العدو ثقله هناك، وابتدأت انهار المهاجرين تسيل في التلال نحو الشمال، وبدا كل شيء وكأنه يقف على الحافة.

لا شك انه كان اصلب من ان يتردد كثيراً، فقبل ان ينتهي الاسبوع

الاول من ذلك الحزيران كان قد عقد عزمه بصورة ليس بالوسع زحزحتها، لقد سلم سلاحه في معركة لم اهتد الى اسمها بعد لأحد رفاقه ومضى يزحف تحت غيوم راعدة من النار، كان على يقين بأن بعض جنود العدو في خطوطهم الأمامية قد قتلوا، وانه لو انتظر الى نهاية المعركة لفقد فرصته، كان يعرف انهم يسحبون جنودهم بالحبال بعد انتهاء القتال.

وقد استطاع ان يصل بالفعل الى الخنادق المحروقة، كانت العتمة ثقيلة، ولكنه اسقط نفسه في احدى الحفر، وباسنانه فك يد القتيل عن بندقيته، وتفحصها هناك على ضوء الحرائق والانفجارات، ومضى عائداً الى رفاقه.

وسرى الخبر في كل القرى سريان النار، ليس لأنها كانت الحادثة الاولى من نوعها ولكن لأن البندقية التي جاء بها كانت بندقية نادرة.

لن اطيل عليك كثيراً، لقد استدعي في اليوم التالي الى القيادة التي كانت تعسكر في قرية مجاورة، كان الضابط قد سمع عن البندقية، وحين شهدها امامه بين كفي الرجل فتح عينيه على وسعهما:

- هذه مرتينة تشيكية!

وانحنى الواقفون ينظرون الى البندقية الجديدة والتي كان فولاذها يلتمع تحت قنديل الغرفة: كان ذراعها ذا لون بني كامد، وكان حزامها الخاكي جديداً تماماً، مجدولاً بعناية لا تصدق، وكان مشطها الكبير يعلو زنادها كأنه التاج.

وجاء صوت من طرف الغرفة الاخرى:

ـ يبدو انهم تلقوا شحنة سلاح جديدة من الشرق، القيادة يجب ان تعرف ذلك.

وهز الضابط رأسه موافقاً على ذلك الرأي وقرر:

ـ يجب ان آخذ هذه المرتينة الى القيادة.

تستطيع يا رياض، ان تقدر ما حدث: لقد تمسك صاحبنا ببندقيته ولكن الأوامر، كما تعلم، كانت اقوى: ألا يصدقونكم دون ان تأخذوا البندقية؟ ألا تستطيعون تقدير قيمة الوقت؟ اذا شئتم ذهبت انا مع البندقية!

ولكن ذلك كله لم يكن يجدي، وكي يطمئن على بندقيته اقسم له الضابط ان يعيدها له، بأمشاط اضافية، خلال يومين.

ومر اليومان، ومر الاسبوع، في ذلك الشهر الذي تتطاول دقائقه ويموت ناس وتسقط بلاد وتحترق مزارع وتولد في كل دقيقة حادثة جديدة: من مركز القيادة الى الدار، ومن الدار الى مركز القيادة، ضارباً في الوعر والشوك، انتظر الآن، وتعال غداً، ولكن الاحداث، كما لا شك تذكر، في ذلك الشهر الحاسم، لم تكن لتنتظر.

وقد تساقط فوقه حدثان في يوم واحد: في الصباح قيل له ان الضابط قد نقل مركز قيادته الى الشمال حيث لا يعرف احد، وفي المساء تلقت «شعب» الضربة الاولى، وحرثت قنابل المورتر بيوتها الطينية، واحرقت اغراس الزيتون، في لحظة كانخطاف البصر.

من الذي سيعيره بندقية في ذلك الطوفان الذي لا تنفع فيه الا البندقية؟ هي وحدها التي كانت تستطيع ان تحمل الانسان عبر ذلك

الموج، الى شاطىء النجاة او الى شاطىء موت شريف ولذلك لم يكن امامه في ذلك الطوفان الغارق الا . . الا ماذا؟ الا الجنون، طبعاً، اذا صدقت انه لم يكن ليختار الفرار.

ولكنه لم يقبل الجنون ولا اختار الفرار. وكان الموت هو الذي تبقى له، ولكن حتى الموت خسره هو الذي صرف كل ايام الحرب مقاتلاً في اول صف، بسلاح معار، بين اسنان موت حقيقي، جلس هناك في شعب على حجر، وسط الساحة، ينظر الى البيوت تحترق، والى الرجال يموتون، والى أهله ينسربون مع من انسرب تحت ظلمة ذلك الليل، الى حيث لم يعرف، ولا يعرف حتى الآن.

وقد شاهدوه حين احتلوا شعب، وحسبوا كما حسبت انا انه مجنون، فضربوه بأعقاب البنادق كي يغذ الخطى في الوعر، الى الشمال.

في طول ما تبقى من الجليل مضى ليل نهار يبحث عن بندقيته: من قرية الى اخرى ومن مقاتل الى آخر، ينقب وجوه الناس والاشياء متعقباً أخبار البندقية التي لم يشهدها الا ساعات، والتي كانت محشوة بالرصاص ولكنه لم يطلق منها رصاصة واحدة.

انت لا تعرف ما الذي حدث في شعب، قليلون هم الذين يعرفون ذلك ولكنه شيء ضروري ان تعرف ما الذي حدث هناك كي تدرك حقيقة القصة. لقد مضى هو صعوداً، في قيظ لا مثيل له، الى البروة، ومن هناك الى مجد الكروم الى البعنه، الى دير الاسد، الى كسره، الى كفر سميع، متعقباً أخبار بندقيته خطوة، خطوة، من قصة الى أخرى ومن رجل الى آخر، وحين وصل الى ترشيحا جاءته أخبار جديدة من شعب: ان الاربعين مقاتلاً الذين تبقوا من رجال شعب ذهبوا الى قيادة

جيش الانقاذ في الشمال ليعرضوا انفسهم كمقاتلين في صفوفه، وحين علموا ان خطة زحف الجيش لن تمر في شعب عادوا الى هناك، وفي ليلة واحدة انقضوا على قريتهم من جديد، واسترجعوها.

ستبدو لك الحادثة غريبة ولكن هذا هو ما حصل، لقد عاد الاربعون مقاتلاً فاسترجعوا قريتهم المحروقة وتعقبوا عساكر العدو الى قرب مفرق «الدامون»، ودفعوا ثمن ذلك عشرة رجال.

لقد حدث ذلك، يا رياض، في بقعة محاطة بالعدو من كل جانب، واستطاع الرجال الثلاثون ان يبقوا وراء جدران قريتهم المهدمة يردون الهجمات المتكررة ليلاً نهاراً، ولكنه هو، في ترشيحا، كان يشم بندقيته قريبة كأنها في متناول يده، واعتقد انه لو انتظر يوماً واحداً فقط لاستطاع استرجاعها، ولعاد معها، الى شعب.

قلت لك ان الاحداث لا تنتظر، ففي اليوم التالي اكتسح العدو شعب مرة اخرى، وفر الرجال الذين فقدوا خمسة من مقاتليهم، الى التلال المجاورة حيث يستطيع ابن البلاد ان يضيع قطيع ماعز.

وقيل له يومها، ان بندقية تشيكية جديدة شوهدت مع رجل عجوز في قرية صغيرة تقع على بعد ساعتين الى الشمال من ترشيحا. وقد ذهب الى هناك في الليل، وهناك قيل له، وهو يكاد يفقد وعيه، ان مقاتلي شعب الخمسة والعشرين قد انحدروا اليها تلك الليلة بالذات وقاتلوا ببنادقهم وسكاكينهم حتى الصباح وانهم، مرة اخرى، استرجعوا قريتهم الممزعة، وتمركزوا وراء الركام على مداخليها وفقدوا ثلاثة رجال.

وراء اخبار البندقية، من باب الى باب قيل له ان العجوز الذي شوهد يحملها قد مضى، في الليل، وتسلق الهضبة ذاهباً الى الجنوب، ربما ليلتحق بالمقاتلين الذين بدأوا يتجمعون الى الجنوب من ترشيحا بانتظار هجوم حاسم. ودون ان يضيع لحظة تردد واحدة كرّ عائداً الى ترشيحا، فرجال شعب الثابتون وراء استحكامات الدمار في قريتهم الصغيرة المعزولة ينتظرونه. ثم انها، لو تعلم، قريته التي لم يستطع، حين اجتيحت، ان يطلق في سبيلها رصاصة واحدة.

ولكن اخبار شعب سبقته الى ترشيحا، حيث لم يستطع ان يعرف اخبار البندقية: لقد فوجىء المقاتلون المنهكون بهجوم ثقيل ماحق، وفقدوا وهم يتراجعون سبعة رجال، وحملوا معهم اربعة جرحى، واختفوا في التلال.

وفيما كان هو على حافة الجنون يتسقط، كما لو انه بين نصلي مقص، اخبار بندقيته من جهة واخبار شعب من جهة اخرى، انحدر ما تبقى من مقاتلي تلك القرية الصغيرة، بعد ساعتين من تراجعهم، واكتسحوا القرية مرة ثالثة مثل لمح البصر، ومرة ثالثة ايضاً تمركزوا فيها بعد ان الحقوا خسائر حقيقية بالعدو وغنموا مما خلفه سلاحاً وزاداً.

لست ادري من الذي قال له في «ترشيحا» انه لو استطاع العودة الى شعب بكفيه العاريتين، لاستطاعوا هناك تزويده بالسلاح الذي يريد، ولست ادري ان هذا القول قد راقه او لا، ولكن الذي ادريه هو انه، تلك الظهيرة القائظة، شاهد بندقيته على كتف رجل في الساحة.

وكما تمسك بها يوم انتزعها بأسنانه من قبضة القتيل شدها اليه وهي لما تزل معلقة على كتف الرجل، وحين استدار هذا الاخير، مذهولاً،

وشهد امامه ذلك الرجل الطويل الصلب ذا النظرات القاسية والوجه المنهك، اكتشف، اغلب الظن، انه على ابواب عراك، فثنى كوعه حول حزام البندقية، ومد ذراعه الاخرى لتحول دونه ودون العملاق.

اما هو فقد كان غيرقادر على الكلام، قيل لي انه كان يبكي وكان يرتجف كالمحموم، لقد مضت شفتاه الجافتان تتمتمان كلاماً ليس بالوسع فهمه، وأمامه كان الرجل الآخر بلحيته الدقيقة وعينيه الغائرتين قد عقد العزم على المضي بالعراك الى احدى نهايتيه.

ـ هذه مرتينتي!

قالها بعد جهد لا يصدق بصوت مبحوح محشرج وطفقت عيناه تحدقان الى الرجل العجوز كأنهما تنتظران الاعتراف، الا ان العجوز الصعب صرخ بوجهه:

ـ مرتينتك ايها النصاب؟، لقد دفعت ثمنها من حلالي قبل يومين فقط!

وتساءلت العينان في وجهه، فقد كان مستحيلاً، بعد، ان يتكلم، وجاءه الجواب:

ـ من حلالي، اشتريتها امام خمسة شهود من ضابط باعها لي، وهو يتجه الى الشمال، بمئة جنيه.

وارتخت قبضتاه عن جسد البندقية الا انه لم يتركها تماماً، وبدا انه، في لحظة واحدة، سيتهاوى ولكنه بذل مزيداً من الجهد وهمس:

ـ اريدها لأعود الى شعب.

ـ شعب؟ لقد احتلها اليهود مرة اخرى قبل قليل.

ترك البندقية، فضمها العجوز الى صدره بقوة وتراجع خطوتين، وحين اطمأن تماماً الى انه لن يفقد سلاحه سأله:

ـ هل كانت هذه المرتينة لك؟.

وهزّ رأسه، يائساً الى النهاية.

ـ دفعت بها مئة جنيه مهر ابنتي الوحيدة، لقد رفضت كل عمري ان ازوجها لذلك العجوز النتن، ولكن ماذا تريدني ان افعل الآن؟ لقد دفع مئة جنيه، دفعتها بعد ربع ساعة فقط ثمناً لهذه التشيكية.

وبهدوء استدار كشيء محطم، ومضى. كانت تلك هي آخر مرة شوهد بها في ترشيحا وليس يدري احد الى أين ذهب، وعلى اي حال فانه لو ذهب شمالاً لكان من المؤكد انه سمع، قبل ان تتيسر له مغادرة الحدود، ان رفاقه العشرة الذين تبقوا من مقاتلي شعب قد هبطوا التلال بعد يومين، وبسلاحهم اليسير استرجعوا تلك القرية الصغيرة المهدمة، مرة رابعة.

***

لم اهتد بعد الى اسم العروس التي بيعت ثمناً للبندقية، ولم اعرف بعد ماذا فعل العجوز بتلك البندقية الجديدة، وكذلك فأنا لا اعرف كيف انتهت قصة شعب، وكيف انتهت اخبار اولئك الرجال الأربعين الذين ذابوا بالتدريج، كما تذوّب النار قطعة دهن.

اهو الرجل الوحيد الذي تبقى من مقاتلي شعب؟ ربما، لست أدري

في الواقع، ولكن يخيّل الي ان هذا هو السبب الذي جعل منه رجلاً غريباً ينتابه احساس ثقيل بأنه ما زال يبحث عن بندقية ضائعة ليلتحق بالرفاق الذين كانوا ينتظرونه في القرية المهدمة.

ولكن يا عزيزي رياض لماذا لا تفتش معي عن ذلك الرجل؟ انه رجل طويل جداً، صلب جداً، لا اعرف اسمه، ولكنه يلبس بذلة خاكية قديمة، ويبدو وكأنه محاط برذاذ مضيء، ويلوح لأول وهله، حين يستوقفك ليسألك: «هل رأيت العروس؟» يلوح كأنه مجنون.

ابحث معي عنه، حيث انت، فلديُ اخبار جديدة عن العروس...

بيروت ـ ١٩٦٥